منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

نسخة منسقة
مجلة الإبتسامة

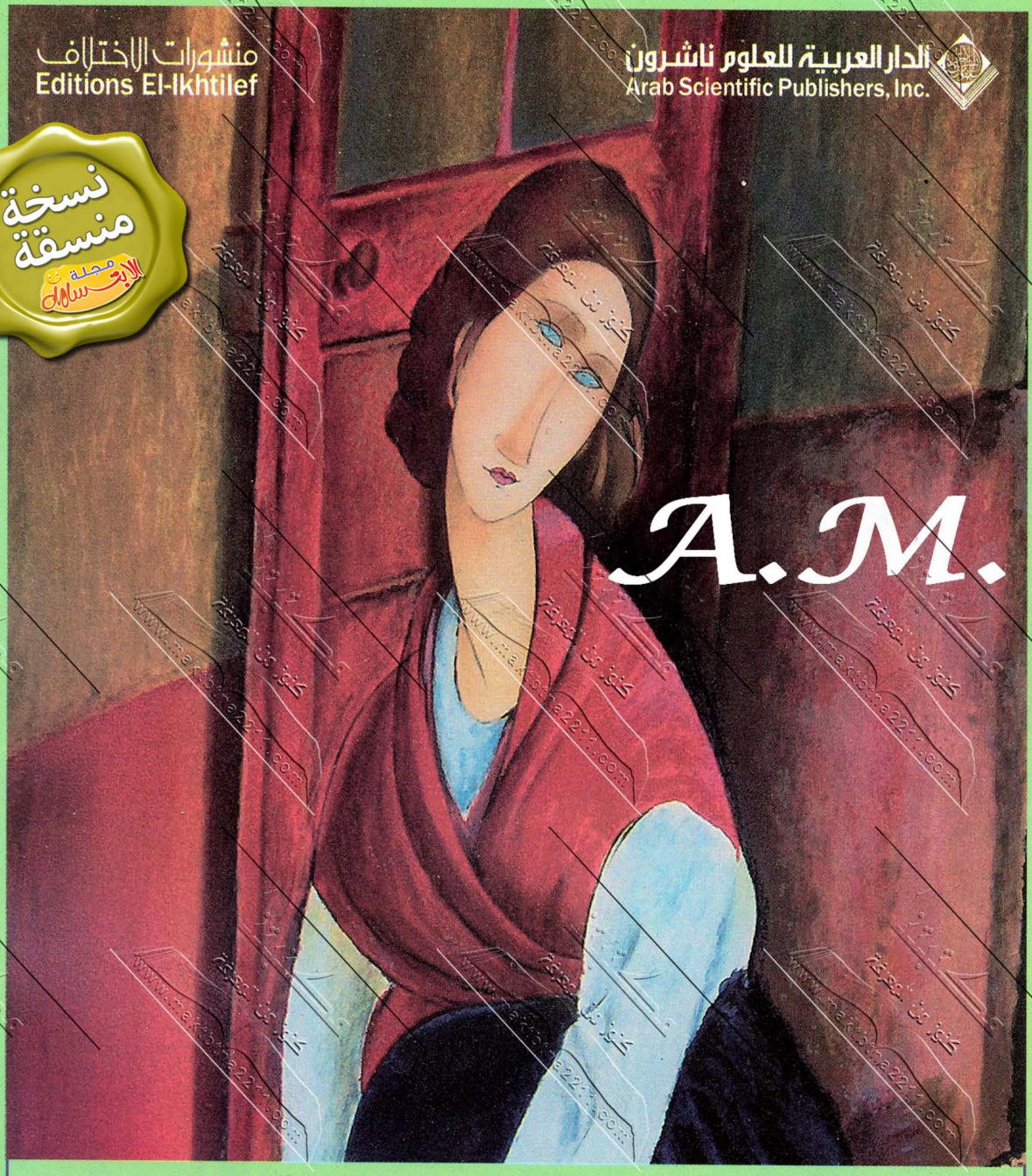

A.M.

هيفاء بيطار
www.ibtesama.com
غروب وكتابة
مكتبة كل شيء
http://www.maktbtna2211.com/

قصص قصيرة

فريق العمل بقسم تحميل
كتب مجانية

شكرا لمن قام بسحب الكتاب
و جزاه الله خيرا

Dr. Ahmed Mady
د. أحمد ماضي

A.M.

غروب وكتابة

قصص قصيرة

هيفاء بيطار

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

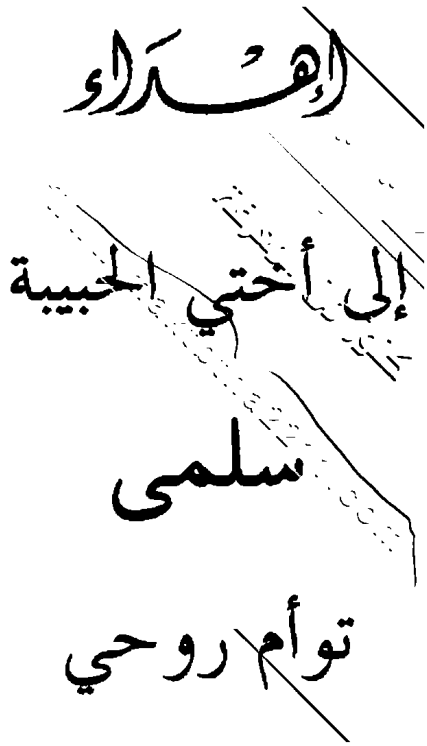

إهداء

إلى أختي الحبيبة

سلمى

توأم روحي

www.ibtesama.com

تنسيق:علامة تعجب

المحتويات

إلى روح أحمد 9
رحمة الكذب 15
غروب وكتابة 21
مدرسة الأمل للمعاقين 25
كَفَن الأستاذ 30
سراب 42
عطر الحب 51
الصغير ينام في سرير إعاقته 61
الصيّاد 64
أحلام على الريق 76
امرأة من غيم 84
العناب 90
جسد بلا رائحة 96
جميلة 104
حب في زمن العولمة 108
ظل أسود حي 116
يوم في حياة ممرضة 124
عذاب 132
فريد 138
صندوق الضمير الأزرق 145

إلى روح أحمد

مـــا ســـأحكيه قديم، لكن أحمد يبعث أمامي كل يوم فأنا أرى وجهـــه الشاحب النحيل في وجوه كثيرة، صعب أن أكتب عن أحمد دون أن أبـــذل جهـــداً كبيراً لأتمالك نفسي، لأحزم انفعالاتي وأربطها جيداً كي لا تنفلت في كل اتجاه لاحقة أحمد في ضياعه.

منذ تلك اللحظة ضاع أحمد، لحظة توفي أخوه فريد الذي يكبره بـــسنتين، لم أكن أعرف فريد، لكن كل من يعرفه يشهد أنه عبقري، لكـــن حين رأيت صوره هالني الشبه بين أحمد وفريد لدرجة لم أعرف أحـــدهما مـــن الآخر، لهما القامة ذاتها والسمرة الجذابة نفسها، العينان الواســـعتان الـــسوداوان والابتسامة الساخرة نفسها ربما النظرة تختلف بيـــنهما فنظـــرة فريد فيها ثقة وقوة، أما نظرة أحمد فحائرة، نظرة من يفتش عن شيء عارفاً أنه لن يجده.

مات فريد في العشرين بسبب خطأ طبـــي، ميتة تافهة، فقد دخل المشفى لتجرى له عملية بواسير، المشفى الوطني البائس لا يهتم بتعقيم الأدوات الجـــراحية ربمـــا من فرط إيمان العاملين به بالعناية الإلهية، لا يعقمـــون الأدوات! تجرثم دم فريد بعد العملية ولم يتمكن الأطباء من إنقاذه فمات بعد ثلاثة أيام من العمل الجراحي.

اســـتنفرت المدينة في جنازة فريد، كان مشروع عبقرية في الرسم والموسيقى والمسرح، بقي من فريد عشرات اللوحات الزيتية التي بهرت

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

أعظم الرسامين وبعض المقطوعات الموسيقية ومشروع مسرحية كتبها ولحّن أغانيها...

في الجـــنازة - التي لم أحضرها - وصف لي أحد الأصدقاء أحمد، قال: كان يمشي مترنحاً يرتطم بالناس دون وعي منه، أحمد كان صورة فـــريد، لكنه لم يملك روحه المبدعة، أحمد كان الغبار الذي يثيره فريد حين يمشي.

أراد أحمد أن يصير فريداً، أن تتقمصه روح الغائب - صار يلبس ثـــيابه ويـــدخن غليونه، ينام في سريره ويتأمل لوحاته طويلاً، يستمع لموســـيقاه لكنه يعجز عن خلق شيء... أحمد كان مبهوراً بأخيه الذي عاش عمره القصير بقوة موهبته وحدها، أحمد يبحث في أعماقه المعتمة عن بذرة موهبة، فلا يرى سوى ضباباً وألماً.

أحمـــد عنوان عصرنا، روح الشباب المعذّب بالوحشة والتخلي، ورغـــم المـــرات القلـــيلة التي التقيته فيها فإنه كان يأسرني بتعبير الألم والضياع في عينيه.

أحمد لا يعرف من يكون! إنه يحاول التعرف على صفاته، يحاول بلورة شخصيته يتعمّد أن يدخل في حديثه بعض الأقوال الذكية المهمة التي يحفظها، تهمه الصرعات الفكرية يحفظ أسماء الكتّاب والكتب الذين أثـــاروا ضـــجة، يحفـــظ عناوين الكتب التي منعتها الرقابة ويستميت للحـــصول علـــيها، لا يقـــرؤها، بـــل يتباهى أنه يملكها محاولاً بتلك الممارســـات أن يعطي هوية لشخصيته الضبابية يبحث عن الأشخاص المشهورين، ينحشر في جلساتهم، ويتباهى طويلاً أنه جلس بجوارهم.

كـــان أحمـــد بطيء الكلام، وفي صوته ارتعاش خاص، في وجهه الأسمـــر النحـــيل رهافة، نوع من قلق يشع من كيانه كله، نحوله جعله أقـــرب للأشباح، أحسه حين يدخل مكتبـــي كأنه يطفو في الفراغ،

كـــأن قدميه لا تلامسان الأرض، أرحّب به فيجلس متفرساً في وجهي باحثاً عن تقييمي له.

يـــتألم أحمد حين يقرأ في عيون الناس استخفافهم به، يعرف أنهم يعتـــبرونه فاشـــلاً، حين يقارنونه بأخيه، ولأنه ترك الجامعة منذ سنته الأولى وفتح دكان حلاقة للرجال، كانت دكانه مقابل مكتبتي وكم من المـــرات كنت أتلصص على أحمد يقف عند النافذة سارحاً في اللاشيء ينفث الدخان بشراهة مشعلاً سيجارة من عقب أخرى.

أحاول أن أوصل لأحمد رأيي بأني أحترمه وأسعد بلقائه، يسعده ذلـــك لكن الشك يعاوده يعتقد أني أشفق عليه.... أعاتبه لإدمانه على الكحول أعنّفه: أحمد، تسبقك رائحة الكحول في أي وقت... لماذا هذا الاستهتار بصحتك؟!!

يـــضحك كاشـــفاً عن أسناناً مصفرة من التدخين، يتنفس بمشقة وهو يرطن بكلمات لا أفهمها ولا يهمه أن أفهمه... يتكلم أحمد كأنه يهـــذي وجهـــه يعبّر عن خفايا روحه المعذبة، ينتقل فجأة من أقصى درجات الهزل إلى الجد وفي لهجته حماس يائس، صدغاه يتقلصان دوماً وهو يتكلم، كأنه يلجم دمه الغاضب.

ما يبقى في نفس أحمد من مشاعر أكثر بكثير مما يعبّر عنه... أحمد يعـــاني إعاقـــة روحية وذهنية يسحقه حلمه بالتفوق، حلم القوة، قوة الموهـــبة الـــتي كان يمتلكها فريد...أيموت العبقري ويبقى التافه! أحمد يـــؤمن أنه كان يجب أن يموت ويبقى فريد، فهو في أعماقه يشعر أنه لا شـــيء وبأنه ظلّ لأخيه، أحياناً يتجرأ أحمد ويعبّر عن اضطرابه أمامي، أشـــجعه، يبدأ الكلام، لكن حديثه ينقطع فجأة، يحرك يديه حركات تدل على قلق محموم، ليس لديه أية رغبة بتوضيح أفكاره، لأن لا أفكار خاصة به.

تنتابه رغبة في أن يظهر بمظهر المستقل عن الناس، لكنه يعرف أنه ظـــل للآخرين، يعيش أحمد حياته مُستزلماً لأشخاص كريهين من شدة افتتانهم بأنفسهم، أحمد بالنسبة لهم الجمهور الذي يستمع إليهم بصبر لا محـــدود، ويـــصفق لهم، موحياً لهم أنه معجب بأفكارهم، بينما هو في الحقيقة يحتقرهم وينفر من صلف روحهم لكنه لا يملك الجرأة ليبتعد... إلى أين سيذهب، إنه تائه في هذا الكون المعقّد.

كـــل حلم من أحلامه ينصرف إلى فريد، لا يستطيع أحمد تحمّل أحاسيـــسه، إن لم يغـــرق في سبات الكحول، إنه ينشد طمأنينة زائفة وراحة أقرب إلى الموت.

ذات عصر دخل مكتبـــي متعتقاً من السُكر، ترنّح قبل أن يجلس على الكرسي، قال لي وعيناه تطفحان بالدمع: أشتهي أن أقبّل الأرض التي مشى عليها.

أحمـــد أسير ذكرياته الهذيانية عن فريد، فريد الذي له شكله تماماً وبـــتطابق نـــادر لكنه للأسف لا يملك روحه، خبط بيده على صدره وقال: أوف الضجر يرهق قلبـــي.

اســـتغربت من تعبير (الضجر)! لكن متى كان أحمد يجيد التعبير! فجـــأة تكشفت لي الحقيقة التي تعذب أحمد، شفّ جسده النحيل عن تلك الحقيقة لدرجة لم يترك لي مجالاً للالتباس، أحمد يشعر كل لحظة أن كـــرامته جريحة، ماذا فعل أحمد بعد وفاة أخيه؟؟... استجاب لنصيحة المقـــربين بأن يرفع شكوى ضد المشفى، لأن أخاه مات بسبب تلوث الأدوات الجراحية.

حصل أحمد بعد سنتين على مبلغ تافه من المال كتعويض عن وفاة أخيه، أحس أحمد أنه قبض ثمن دم أخيه، أنه باعه، يتعذب أحمد بسبب نبل نفسه يجد نفسه هشاً ومُهمشاً ولا يملك أدوات ليخلق صفاته، يرى

مـــن حوله لصوصاً ومنافقين يحتلون مناصب حساسة، يضطر للتصفيق لهم واحترامهم.

تُـــرى مـــن هـــو؟ من يبالي بحلاق فقير وسكير؟ الناس يعاملونه باســـتخفاف رغـــم أنه يصغي لهم إصغاء كله حب وحنان ويخدمهم بحماسة صادقة.

تنـــتاب أحمد نوبٌ من المزاج القاتم فينسحب من المجتمع مختبئاً في قوقعة وحدته ويحب من وقت لآخر أن يجمع الأصدقاء في بيته، يصرف كـــل دخلـــه من دكان الحلاقة لتقديم مشروبات ومازوات للأصدقاء وحين يزورهم يقدمون له فتات صحونهم المتسخة بأنانيتهم.

لا ينـــسى أحمد أبداً عيد ميلاد كل واحد من معارفه، ولكل واحد يقدم له الهدية التي تسعده ولا أحد منهم يتذكر عيد ميلاده، وإذ صدف أن تذكـــر أحدهم عيد ميلاده فيكون مخطئاً في التاريخ، قبل أيام أو بعد أيام... يشعر أحمد أنه من ضباب.. يحاول أن يرسم مثل أخيه لكنه يعجز عـــن خلـــق شيء، كان فريد يرسم عدة رسوم توضيحية قبل أن يخلق لوحته كاملة، كل محاولات أحمد للرسم كانت ذاتها، يرسم نقطة سوداء في صـــفحة بيضاء... إنه نقطة تائهة في الكون، تعذّبه تفاهة روحه، حلم الموهبة يستولي عليه، يشعر أنه عاجز أن يكون حتى إنساناً عادياً...

يمـــر أحمد بفترات غريبة، يجهل هو ذاته لِمَ يمرّ بها، يختلق كذبات غـــريبة وتـــراوده أفكار جنونية، يختلق قصصاً عن علاقات غرامية مع فتيات وعن لوحات رسمها فنالت إعجاب الرسامين والنقاد وعن قصائد ألفهـــا ونشرها في مجلات تمنع الرقابة دخولها! يحس أحمد أنه يمضي نحو الهوة دون أن يفكّر... كل يوم يشعر بتفاهته وتفاهة حياته، يقصّ شعر الـــرجال ويحلـــق ذقونهم، يحاول قراءة أفكارهم من شكل رؤوسهم، يدخن بشراهة ملاحقاً الدخان الذي يرسم دوماً وجه فريد.

يجد أحمد نفسه مضطراً أن يؤمن بالقدر كي يخفف عذاب روحه، احـــتل القدر حديثه في الفترة الأخيرة، يسألني ويسأل الأصحاب: ألا تعتقدون أن قدر فريد أن يموت في العشرين؟... لم أحاول أن أفتش عن خلفـــية هذا السؤال اعتقدت أنه يحاول أن يخفف عن نفسه ألم فقدان الحبـــيب، إلى أن أتاني خبر سقوطه من الطابق الثامن!!.. يُقال إن قدمه زلّت وسقط، وأنه على الأغلب كان سكران، لكني لم أصدق أبداً تلك القـــصة، فأحمـــد أراد أن يموت، من نسيج يومه العادي تنبعث رائحة الموت.

كانت جنازته متواضعة جداً، ومعظم أصدقائه تعللوا بأعذار قاهرة و لم يودعوه إلى مثواه الأخير...

أحمـــد كان يبتسم وهو ميت، ابتسامة صافية حقيقية، عجز عنها وهو حي.

رحمة الكذب

أخـــذ جـــسدي يـــرتعش بقوة خارجاً عن إرادتي من تأثير ثقل الحنيقة، ذكّرتني تلك الرعشة بطفولتي، إذ كنتُ أرتجف لا إرادياً حين يعاردني رعبـــي الأبدي من أبـــي وتهديده لي بالعقاب.

كانت كلماتها تتساقط كالرصاص في قلبـــي المترع بحبها... أجد نفـــسي مـــضطراً للإيمـــان بالقـــدر، فما الذي دفعني لإلغاء سفري ومناجأتها.... ألم أتركها البارحة مجنونة من السعادة لأني سجلتُ البيت الأنـــيق باسمها فدعتني لوليمة حب سخية لم أتخيّلها في حياتي، لدرجة اعتـــرفت لهـــا أنـــني تعلّمت منها فن الحب، هي الفتية التي لم تتجاوز الخمسة والعشرين وأنا الكهل على أعتاب الستين.

وقفـــتُ كـــاللص في الردهة المعتمة محاذراً أن أُصدر أي صوت، كـــتمت أنفاســـي وأنـــا أصغي لحديثها الهاتفي، كانت منبطحة على الأريكة شبه عارية، تداعب بيسراها سلسلة عنقها الذهبية التي أهديتها إيادـــا دون مناسبة، فهي تعرف كيف تدفعني إلى فعل ما تريد دون أن تطلب شيئاً.

أظـــن صـــعب على رجل في الستين أن يشرح لماذا وكيف صار عاشقاً! هذه الجنيّة جعلتني أفهم حياتي وأفتّح عيني على الحقيقة، كنتُ أجهـــل أنني أصبحتُ أكره زوجتي وأنني أقرف من طيّات بطنها الرخو ولا أحس بأية إثارة حين أقبّل شفتيها اليابستين وعنقها البدين، وأشمئز

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

مـــن يـــديها السميكتين رغم طلاء الأظافر الفاقع والخواتم الثمينة.... كـــنتُ أنسى نفسي أمام نظرات الشابة وهي ترنو إليّ بعينين بحلاوين، وتنظر إليّ نظرات طويلة مثيرة وملحّة فيلتهب دمي، وأغدو مستعداً أن أدفع حياتي ثمن لحظة سعادة كثيفة.

كنتُ أنصت لها بقلب هائج، من هذا الرجل الذي تخاطبه كما لو أنـــه أنـــا؟ كيف تستعمل العبارات ذاتها وبموسيقى صوتها نفسها حين تكلمـــني... أموت عليك، ما مصدقة ألتصق بك... أعبدك عبادة... التبست الحقيقة في ذهني، لعلها تحدثني أنا! أمكنني أن أرى ألق الشهوة يـــومض في عينيها وهي تتكلم وقد التصقت سماعة الهاتف بفمها.... بهرني موهبتها رغم ألمي الحارق، وعرفتُ من شدة سيطرتي على نفسي عمق التوتر الذي أعانيه.

أإلى هـــذا الحد تتقن دورها معي؟ أيعقل أن يكون سلوكها معي تمثـــيلاً! كنتُ لا أزال مُسمراً في المدخل ويدي في جيبـــي تقبض بقوة على العلبة المخملية الزرقاء وفيها خاتم الألماس الذي أردتُ أن أفاجئها به.

تـــوجهتْ إلى الحمام، سمعتُ صوتها الدافئ يغرّد اللحن ذاته حين تكون تحضر ذاتها لحفلة الغرام. امرأة حوّلت قلبـــي السميك إلى فراشة رشـــيقة، جعلت لحياتي إيقاعاً جديداً، قبلها كنتُ قد تحوّلت إلى رجل ينتظـــر شـــيخوخة بـــلا أمراض قانعاً بشريكة العمر الأبدية وبالأولاد والأحفاد.

كـــم كانـــت حياتي يابسة، بلا رشّة فرح حقيقي، جاءت هي لتحـــررني مـــن غثـــيان الحب الأُسري ومن أسئلة أولادي التي تغرقني بالاكتـــئاب، يعتقدون أنهم يحبونني ويخافون على صحتي، كل حديثهم معي عن الصحة!

- هل تناولت دواء الضغط؟

- لا تكثر التدخين.

- خفف من أسفارك فهي مرهقة لرجل في عمرك.

- لا تسهر كثيراً، فالنوم ضروري لرجل مثلك، لم تعد شاباً حتى تتحمل طول السهر...

كنتُ أسخر من وصاياهم التي تفوق الوصايا العشرة، حين اقتحمت تلك المرأة الملتهبة بالوجد حياتي شعرتُ أني أدشّن عمراً جديداً، لم يشن علي الوله مثل هذا الغزو الذي لا يقاوم و لم أعرف مشاعر بذلك الزخم كما أحسسته معها رغم علاقاتي الغرامية العديدة، لكن هذه الفتاة بدّلتني، جعلتني أحس بسعادة أني رجل، يُحب ويُثير، رغم اقترابي من الستين وعلي الاعتراف أن طاقتي الجنسية تضاعفت مراراً رغم عدم استعمالي الفياغرا.

هل أقتحم عليها الاستحمام السعيد وأفاجئها بما سمعت؟ وأسمّرها في الخيانة؟ هل امتلك الجرأة لفعل ذلك؟ ما بالي مسمرٌ هكذا وعيناي طافحتان بالدموع؟ كنتُ أقف مرتعشاً مخذولاً شاعراً أني خرقة بالية، ورغم ألمي المذّل أمكنني تذوق النشوة التي تحركها بي بصوتها، استنزني الفضول لأعرف من هذا العشيق الذي تغازله بالكلمات ذاتها التي تقولها لي؟!.. وحيداً في الظلام، مطروداً من جنة الحب، تكشفت لي الحقيقة. كيف فاتني أن شابة فتية تحبني لذاتي، أليس واضحاً أنها تهبني جسدها مقابل المال، مقابل مطر الهدايا الثمينة والأسفار والبيت الذي كتبته باسمها، لقد حققت ما أرادت وصار بإمكانها أن تدعو عشيقها أو عشقها إلى البيت.

خرجت من الحمام، غزاني عطرها المثير، طعنتني الشهوة بخنجرها الحاد، كم رغبتُ بهذا الجسد الذي يخونني، هذه المرأة - الشيطان -

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

جعلـــتني أزحف على بطني سعياً لامتلاكها لتتركني حين تشاء هيكلاً محترقاً يعصف فيه الفراغ واليأس، وجدتني في مستنقع يأس هائل نَبَع من أعماقي المجهولة التي لم أنتبه لها من قبل.

فجـــأة تذكرت حياتي الماضية، الأحفاد والأصدقاء الكهول الذين ألاعبهم الورق لساعات زاحفين بحديثنا إلى الماضي دوماً، إذ لا مستقبل لنا، متذكرين بذاكرة مشوشة عشيقات عابرات طمرهن النسيان...

هـــل أُلام إذ سمحـــتُ لهذه الشابة باقتحام حياتي من باب الملل العـــريض؟ لـــتجعل أيامي تشبه طريقاً صاعدة للقائها.. فجأة أدركتُ مـــدى الـــضعف الـــذي هويت إليه وأنا معها، كيف لم أنتبه أن تلك الـــشابة طمّاعـــة، وأنها تعبد المال، لكنها في الحقيقة صاحبة ذوق رفيع وتتمـــتع بثقافة عالية وتكتب نثراً جميلاً، لكن أهم ما يميزها أنها ممتلئة بالحقـــد على هذا الزمن، على الأغنياء اللصوص وهي مؤمنة أن شابة بثقافـــتها وذكائهـــا من العار أن تكون فقيرة وستسعى جهدها لتنضم لقائمة الأثرياء، من حين لآخر كانت تفاجئني بقصائد عذبة تكتبها لي، وعـــدتها أن أطبعها بديوان، من قال أن أجمل الشعر أكذبه؟ أليس أجمل الحب أكذبه أيضاً!!..

غـــارق في فراغ روحي المصدومة صريع هوى لا يقاوم، أتساءل هل أفاجئها أم أصمت وأتفرج على عشيقها؟ يا للذل الذي أحسه وأنا أشعر أني أرغبها بقوة، لمحت طرف قميص نومها الأبيض الحريري، كل هـــذه الهدايا قدمتها لها لتخونني.. كنتُ أعتقد أن المفاجأة ستدفعني إلى الانتقام، لكن ها هي تدفعني لحضيض اللامبالاة.

خـــرجت من البيت كمطرود من الجنة ووقفت في عتمة الدرج أنتظـــر غريمـــي. مشاعري مشوشة ومرضوضة على نحو غريب، كنتُ أفكـــر بهـــا، بدورها الذي تتقنه بشكل مُبهر، إنها فنانة بامتياز، تمارس

الحـــب بفنية عالية، لعلها مشروع ممثلة عبقرية!! لكنها حركت حباً في نفـــسي، حباً أكبر مني... كم أشفق على نفسي وأنا أعاني ألم المنازع الو-حـــيد، حبـــستُ أنفاسي وأنا أراه، شاب رشيق، حدّقت في ثيابه، هوى قلبـــي فهو يلبس قميصي، أحسستُ بقبضة قوية تعصر قلبـــي، فهمتُ كيف تختفي بعض ثيابـــي وقداحاتي، كنتُ أعتقد أني أضيّعها في أسفاري، لكنها تهديها بوقاحة لعشيقها.

وجـــدتُ نفسي مجبراً على قبول الحقيقة، إنها شابة في عمر ابنتي الـــصغرى، ابنة زماننا، زمن الخداع، ليس مثل الأنثى تتقن الخداع... فجأة غمرتني ذكرى منذ سنتين، كنت قد دعوتها لحضور فيلم سينمائي مشهور، عجباً كيف لم أنتبه لما قالته.

الفـــيلم يحكي قصة عجوز ثري وقع في هوى فتاة صغيرة وفقيرة، تعلّـــق بهـــا بجنون وأعطاها كل ما يملك، وما أن امتلكت الشابة ثروته حـــتى هجرته فمات مقهوراً... يومها شتمت الشابة ووصفتها بصفات بـــشعة، فقالـــت محتدة: لا تتحدث عن الكرامة والأخلاق حين يكون هناك فقر!

وجدتني أتساءل شابة مثلها كيف ستحصل على بيت جميل ولباس أنيق وعيش كريم... وهي سجينة البطالة، وقد أضناها البحث عن وظيفة لم تجدها، وإن وجدتها فبالكاد تطعمها خبزاً! اقتربت من الباب، التصقت بـــه، خيّل لي أني أسمع صوت أنفاسهما اللاهثة في صعود إلى النشوة... كم أحب وجهها بتحولاته السحرية صاعداً إلى النشوة...

هـــل تقترب من نشوتها الآن... كيف أنـــزع تلك السكين من قلبـــي؟

لم أحس بشيخوختي كما أحس الآن، لا أجرؤ على اقتحام مملكة الخيانة... مسكينة زوجتي أقرف من جسدها، هي التي تصغرني بسبعة

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

أعـــوام، فكـــرت أن عشيقتي الشابة تقرف من جسدي لكنها تكابر لتحصل على المال.

امـــتلأت عيـــناي بضباب كثيف، فكّرت بتلك الأنثى الموهوبة، حاولـــت أن أفهمهـــا بمعـــزل عن علاقتي بها، إنها تجد لذة عظيمة في الخـــداع... أليس الخداع عنوان العصر! تخيّلت أنني أواجهها بالحقيقة، وأمكـــن لي أن أتمـــثل وجهها الحلو بنظراتها الثاقبة المتحدية، ستصرخ بـــي: اسمع المعادلة واضحة، لم أبخل عليك بشيء طوال عامين، وأنتَ أيـــضاً لم تبخل. أنتَ اعترفت لي أنك سعيد معي، وأنه لم يسبق لأنثى أن غازلتك مثلي، فدعني أعش عمري.

يهدني تعب قاس يجبرني على الجلوس أرضاً، أنفاسي تتلاحق كأني أختـــنق، أحتاج أن أتمدد على سرير مريح دافئ يعبق برائحتها، أحتاج راحتـــيها الدافئتين تمسدان جسدي وتدهناه بزيت اللوز... ومداعباتها الخبيثة تطيّر آخر ذرة وقار مني.

أحتاج تلك العربدة المدهشة التي تعلمتها في مدرستها... ما قيمة حـــياة يابسة كحياتي قبلها... اللعنة على الحقيقة، لماذا يستميت الناس لمعـــرفة الحقـــيقة؟ الـــرحمة في الكذب؟ السعادة في الكذب؟ الحب في الكذب!....

تحاملـــت على نفسي، طلبتُ المصعد وأنا ألهث كغريق، لا تزال قبـــضتي تعصر العلبة الزرقاء، ابتلعت غصة قاسية وأنا أعترف أن الخاتم لها.

غروب وكتابة

ثمـــة شـــيء ينهشني دوماً لا أعرف ما هو؟! ما أصعب أن يكون المخلـــوق إنساناً!! أشعر أنني أُنشد الراحة، راحة لا أعرف شكلها ولا طعمها، ولا أظنها سترضيني فقد اعتدت على القلق لدرجة صار يفتنني، أثقـــف نفسي، أحب الكتب الصعبة التي أكسّر رأسي بين صفحاتها، أحب أن أتحدث عن قراءاتي بأسلوب جذاب.

يغويني فن الكلام، أعرف أن كل ما أقوم به له غاية أساسية هي تمـــويه إحـــساسي أنه ليس لي دور في الحياة، فأيامي تتعاقب كرقّاص الـــساعة، لا تسجّل ماضيها ولا تحلم بمستقبل.. أشعر برغبة في البكاء دون ســـبب واضح. أكثر ما يثير فيَّ البكاء الصمت. أختبئ في رصانتي وأواجـــه الـــناس، لا يمكنهم تخيّل اضطراب قلبـــي، جموحه وجنونه، أجـــبرُ نفـــسي على رياضة المشي وغالباً ما أمشي وسط نوبة من الألم والوحـــشة، وحقائـــق معيـــنة تتبدى لي بوضوح عارٍ، الليل هو قلب الغمـــوض، أخافه بقدر ما أنتظره، لكن الليل يقدّم لي الأسى اللطيف. يحولني لامرأة مغلفة بوشاح شفاف، عنوان حياتي الانتظار، هناك شيء أجهلـــه أشعر أن بوسعي انتظاره إلى الأبد حتى علاقتي مع الناس حولي انـــتظار، أنتظر مكالمات الأصدقاء والإخوة، أنتظر وصول رسائلي لهم، أنتظـــر قـــدومهم ورحيلهم، أنتظر بصمات الزمن على وجهي، أنتظر ابـــنتي، أنتظـــر استيقاظها بشغف وبالشغف ذاته أنتظر نجاحها، ثم يوم

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ســـأفرح بـــزواجها، أفكر أن هوى الانتظار الأكبر هو انتظار الموت، المحطة الأخيرة الفاتنة والتي تجعلني أتحجّر من الرعب.

ثمـــة إحساس مستمر بالفاجعة أعجز عن مداراته، لا أملك سوى مراقبة حياة الناس، إنهم أحياء، لكن ليس فيهم مسّ من عبقرية، ينتابني غثـــيان من محدوديتهم، أقاوم مشاعر التكبر، لكن كلما أمعنتُ التفكير في حـــياتهم الباهتة، أحس بدهشة، أفهم الحياة إبداعاً، أتراهم بحاجة أن يسجنوا أنفسهم ضمن أقفاص ويكون تحليقهم قصيراً؟ التفاهة تحمي من الألم، وأنـــا ماذا أفعل؟ كم مرة ارتعبت من الطاقات الهائلة الكامنة في جسدي الضئيل، يخيل إلي أحياناً أنني قادرة أن أفجّر العالم بالكلمات، حياتي تشبه الابتهال، فأنا دوماً بحالة لهفة، بحالة استجداء لحدوث أمور غـــير عاديـــة، أتوق لأشياء لا أعرف عنها شيئاً وأكثر ما تغويني ورقة بيـــضاء، كل شيء يصبح فاتناً فوق الورقة البيضاء، حتى الخيانة، لدي هـــوس بمـــراقبة الناس الذين يذوون ضحايا أفكار تافهة، أعرف فتاة عاشـــقة ضـــيعت أجمل سنوات شبابها في حبٍ يائس لأنها لا تجرؤ أن تتزوج حبيبها الذي لا يرضاه والدها! والدها تافه، شبه مجنون!

حين يغمرني إحساس بالعبث المطبق، أتوه في الشوارع الفوضوية لمدينتي، هنا لدي وقت لا نهائي للتلصص على الحياة، أفكر وأنا أتسكع كـــم أن الحياة ممكنة ولطيفة بلا حب ولا أصدقاء، فطعم الوحدة ليس رديئاً كما يصورونه لنا، لا توجد غواية أكبر من التسكع في الشوارع أترك للدموع النقية حرية التعبير عن مشاعري، أشعر كيف تذوب سموم روحي في الدموع، أفكر باللغز العجيب الذي أبحث عنه: شيء ينعش القلـــب والروح والجسد... ترى ما هو، أسخر من نفسي حين أجدني بعـــد بحث مستميت أشرب كأس عصير طازج، قد يكون العصير هو اللغز المحيّر الذي يعذبني!؟

خـــوفٌ لا اسم له يتبعني كظلي، أبتسم للموت ابتسامة متصدعة وادنـــة أرجوه ألا يقترب، كما رجوت الحبيب الأول احترام عذريتي، عـــنوان شخصيتي! وأنا تائهة في فتنة الشوارع، أنسى أن هناك تناقضاً كـــبيراً بـــين أفكاري وحياتي، يحوّلني المشي السريع إلى طاقة إلى كتلة منطلقة على صوت موسيقى صاخبة أحتاجها في مسيري.

هـــذه المدينة مرآة ضجري ووحدتي، أحبها وأكرهها، علاقتي بها ملتبسة، كأم لديها طفل مُعاق، قربه عذاب، وبعده عذاب، تتعذب من إعاقته لكن نفسها لا تطاوعها لتضعه في مَصَح، تطاردني أشواق جامحة لحـــياة كـــريمة، أول فيها ما أريد دون خوف، مستعدة أن أخسر كل شـــيء مـــن أجل لحظة حنين مخادع... ما أبشع عمر الحكمة، حيث تـــوجد الحكمـــة يغيب الفرح، أحتاج لمن يخدعني، أحتاج أن أخدع نفسي، لكني صرت كالأسماك أنام وعيوني مفتحة.

ما من شيء يؤثر بـــي، فأنا لا أطلب سوى سحر الكلمة، أعيش تحـــت رحمـــة أهـــواء الكتابة، تلك العبودية الجميلة، لكن المطهّرة من التفاهة.

صـــرتُ أفهـــم سر الغروب، لماذا يسحرني غروب الشمس منذ طفولتي؟؟!! أليست الكتابة ساعة غروب الحياة؟ ساعة الفتنة التي تتوهج فيها الحياة قبل أن يحلّ الموت.

مـــنذ طفولتي أراقب بقلبٍ مرتعش كيف يشعل فيَّ الغروب شغفاً غامـــضاً، وفي كـــل المرات التي كتبتُ فيها قصصي في مقهى بحري، كانت النهايات تنتهي مع الأشعة البنفسجية الأخيرة لشمس غاربة.

الغـــروب لا يشبه الكتابة فقط، بل يشبه الحب، فالحب الحقيقي يتألق في أفوله وقد فارقه الغرور الغبـــي للشباب، وفظاظة الغريزة، ولم يـــبقَ سوى رحيق حب معتق لحبيب أخير، الحب العميق الذي عرفته

كـــان في أفـــوله الغروب البهي الذي يسحرك وأنت ترى فراغ العتمة الـــسحيق وراءه، تـــرى الخـــواء والفراغ والبرودة وراء ألوان الغروب الـــساحرة لحـــب أخير... عندها لا أملك سوى احتضان المشهد بكل طاقـــة روحـــي، ولا أسمح لعينين بذرف الدموع كي لا أشوش اللقطة الأخـــيرة، عـــندها يكـــون التحديق بالمشهد الأخير أقسى من ذرف الدموع.

إنه نعيم الألم، وتوهّج حب أخير يتجاسر ويتحدى الموت.

مدرسة الأمل للمعاقين

كـــنتُ مضطرة للابتسام وأنا أتأملها منهارة، كي ألجم انفعالاتي العنـــيفة التي تثيرها فيَّ دموعها الأشبه بالطوفان وصوتها المختنق بالألم، صديقتي الصغيرة ذات الخمسة والعشرين ربيعاً تعاني آلام الحب الخارقة.

في مطعـــم لطـــيف جلست قبالتي غير مباليةً بنظرات الفضوليين الـــذين يتفرجون على دموع شابة، مشهد يمزق القلب حقاً، فتاة رقيقة تـــذوب ألماً من حبيب هجرها. اقترب منّا النادل وقبل أن أسألها ماذا تـــشربين؟ طلـــبت ويسكي، استحسنتُ فكرتها عسى الكحول يهدئ روعها.

طلبتُ حلوى الزبيب التي أحبها وبعض المقبلات، شربتْ الكأس الأولى بسرعة كما لو أنها راغبة بغيبوبة عاجلة، رجوتها أن تأكل بعض الطعـــام، هـــزّت رأسها بالنفي وقالت وهي تمسح دفقة دموع غزيرة بكومة مناديل ورقية: لا أستطيع، لم أبتلع لقمة منذ ثلاثة أيام.

أحســـستُ بالخجـــل لأني آكل حلوى الزبيب بشهية، مازحتها قائلـــة: أتعرفين حلوى الزبيب أكثر إغواء من الرجل.... يبدو أنها لم تفهـــم ما قلته، بيننا هوّة، كنتُ قد بلغتُ عمر النضج، العمر الذي ما عـــاد الإنـــسان يعاني فيه من آلام الحب، كنتُ أعجز عن فهم جحيم حب يائس، وكنتُ أبدو باهتة أمام تمثال الألم الحي الذي تجسده تلك الـــشابة ومع ذلك قلتُ لها ما يُقال في تلك الأزمات، لكنها لم تبالِ بما

قلـــتُ، أخرجت من حقيبتها قرصي فاليوم وابتلعتهما مع جرعة كبيرة مـــن الويسكي. أمسكتُ يدها الباردة بغضب وقلت بتحذير: اسمعي، الكحول مع الفاليوم يتحول لسم. قالت باكية: هذا أفضل.

صار صوتها رخواً بعد الكأس الثانية، و لم تكف دموعها لحظة عن الانهمـــار، أدهشتني غزارة دموعها، وفكّرت أن الغدد الدمعية ممتازة في تجاوبهـــا مع الألم، لكن هناك بشر تجف دموعهم في المصائب، ترى من أي نـــوع أنا؟ ياه لم أعد أتذكر.... فلم أعد أبكي على ما أخسر بل أبتسم بمرارة.

كـــنتُ أداري التوتر الكبير الذي تسببه لي حالتها المنهارة، آمنتُ أن الحب مرض بللتُ منديلاً بالماء ومسحتُ وجهها المتورم، رجوتها أن تأخذ إجازة من البكاء وأن تصغي لي، حدثتها كما لو أنها طفلة: اسمعي يا غاليتي، لم تعرفي سوى القلق والقهر مع هذا الرجل، فلمَ تتألمين لأنه هجـــرك؟!... يجب أن تفرحي فقد تحررتِ من علاقة مرضية لم تعطك ســـوى الألم والتشتت والضياع، واسمحي لي أن أقول الفشل أيضاً... فقد أهملت عملك وتعرضت لعقوبات بسببه.

قالت: هذا هو الحب.

- لكن، كيف تحبين رجلاً يعذبك كل هذا العذاب؟

- إنه لا يقصد تعذيبـــي.

يبدو أنها رغم تهالكها من العذاب، لمحت الدهشة والاستغراب في عـــيني، فاستطردت تشرح لي وجهة نظرها بصوت رخو شاحب يـــشبه الأنين: إنه رجل رائع، شاعر، حساس، حنون، حين يكون بمـــزاج مرتفع يرسل لي كل ساعة كلاماً مدهشاً عن طريق الهاتف الخليوي، ثم إنك تعرفين أنه كان يقطع مسافات طويلة ليراني ساعة على الأكثر.

- لكـــن عمر سعادتك معه قصيرة جداً مقارنة بالألم الذي سببه لك، شعرتُ أن مهمتي أن أثير فيها الارتياب والشك بهذا الحب، فهذا الـــرجل سادي، سعيد بعذابها، يحس بأهميته حين يراها منهارة، طوال عـــامين مـــن علاقته بها تكشفت لي خطته بوضوح، يدللها، ويغرقها باهتمامه وعواطفه، ثم يهجرها فجأة بقسوة ووحشية ودون سبب، أو يخـــتلق أسباباً واهية خلّبية، ويتركها تتمرغ بآلامها وحبها وهو يراقب تلك الحالة متلذذاً...

لم تكن قادرة على استيعاب تلك الحقيقة، لأن الألم رضّ إدراكها وحـــين طلبتُ إليها وأنا أربت على يديها الباردتين اليابستين أن تبذل جهوداً لنسيانه وسوف أساعدها بخبرة سنوات النضج التي أحملها على كتفي، لكني في الوقت نفسه أحسد تلك الشابة على حرارة عواطفها، وبأنها لا تزال قادرة على تصديق ذلك الوهم الجميل: الحب.

نظـــرت إليّ باستعطاف قائلة: ولِمَ لا أبذل جهوداً لإحياء العلاقة من جديد؟!!..

فجأة خطفتني ذكرى بعيدة، اعتقدتُ أني نسيتها، ذكرى سطعت صـــورها أمامـــي دون ألم، كنتُ في الثانية والعشرين، أتذوق بدهشة أحاســـيس الحب البكر الأشبه بألوان قوس قزح، كان يكبرني بخمسة أعوام، أحببته لأنه كان يحدس دوماً أفكاري ويفاجئني بها، كنتُ أنظر للحـــب بشيء من الورع وكنتُ أكتب له جملاً منمّقة، آخذ معظمها من قصائد الغزل والأغاني العاطفية وأكتبها كما لو أنني ألفتها، لم أكن أفهـــم وقـــتها أن هـــنالك نموذجاً من البشر يتلذذون بآلام الآخرين ويعتـــبرون أنفسهم مهمين حين يتألم الآخرون بسببهم، كانت علاقتي معه تتأرجح بين حب شديد وألم شديد، ولم أفهم لماذا يفتعل الشجار معي ويشتمني ويهجرني، ثم يعود نادماً ليغرقني بعواطفه؟!!...

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

للحظـــة تـــوحدت مع صديقتي الصغيرة، صار لنا الصوت ذاته والنظرة ذاتها، تذكرت أنني طالما اضطررت لابتلاع أقراص الفاليوم كي أهـــدئ آلام الحب.... لم أتذكر الحادثة التي أدت لقطع العلاقة بيننا، لكن المشهد الأخير انحفر في ذاكرتي إلى الأبد، كنتُ أركض في الشارع بلهفـــة حـــب جامح ينهشني بلا رحمة ودموعي تتساقط أمامي كمطر حزين، أحاول اللحاق به لأشرح له كم أحبه وبأني لا أستحق قسوته، لم أبـــالِ بنظـــرات المارة المشفقة، ولم أكترث حين تعثرتُ وجرحتُ ركبتي وأخذ الدم يسيل منها، كان ذاهباً لحضور مباراة بكرة القدم بعد أن أشبعني شتماً وتجريحاً ورغم أن الفتيات لا يقصدن الأندية الرياضية، فلم أتردد لحظة في الدخول والبحث عنه، لم أعد قادرة على الركض، استوقفت سيارة أجرة، سألني السائق برقة: خير يا ابنتي، ما بكِ؟ قلتُ لـــه: أبـــي مريض في المشفى، دعا له بالشفاء، عند الإشارة الضوئية الحمراء، لمحتُ شاباً مُعاقاً يعبر الشارع مستعيناً بعكازين، وجهه وسيم وهـــادئ، نظرته دافئة واثقة، يداه تقبضان بقوة على العكازين ورجلاه رخـــوتان مشلولتان. بضربة سحر انقلبت حالتي وانطفأ الحب المريض الـــذي نهـــش روحـــي كسرطان، لم يعد يعني لي شيئاً ذلك الشاب المتغطـــرس الـــسادي الذي يذلني ويستمتع بتجريحي، سأنـــزل هنا لو سمحـــت، بصوت يتماثل للشفاء أمرت السائق أن ينـــزلني من السيارة ووجدتني أمشي بهدوء وبطء وراء الشاب المعاق، توقف واشترى علبة ســـجائر وجـــريدة، اســـتأنفت الـــسير وراءه ونظري معلق برجليه المـــشلولتين، كنتُ كالمسيرة أمشي وراءه شاعرة أني أشفى خطوة بعد خطوة.

لم أفهـــم حـــتى الآن سر تلك المعجزة، كيف شفيتُ من حب مـــريض لمجرد أني لمحتُ شاباً معاقاً؟ ماذا عنتْ لي تلك الإعاقة؟ كيف

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

تفاعلـــت مع قهري وشفتني بلحظة؟ بعد مسيرة قصيرة ومنتبهة، توقف الـــشاب وجلس في مقهى رصيف طلب كأساً من الشاي وهو يتصفح الجريدة، كم رغبتُ أن أتحدث إليه، لكني على الضفة الأخرى لرصيف الحياة، طلبتُ عصير جزر، شربته مستمتعة بطعم الشفاء، ونظري معلق بالـــشاب الذي أهداني إعاقته لأشفى كي لا أكون مُعاقة بروحي، كي لا يكون حبـــي مشلولاً كقدميه.

شكراً، رددتها مراراً وأنا أعود إلى منـــزلي، رميتُ أقراص الفاليوم في القمامـــة، ورجوت أخي أن يقول لذلك الشاب المتغطرس أني غير موجودة حين يتصل بـــي.

انتفـــضتُ فجأة وسحبتُ صديقتي الصغيرة من يدها، سألتني إلى أيـــن؟!!... لم أجب، كنتُ مصممة، أوقفتُ تاكسي بلهفة وأمرته أن يسرع إلى (مدرسة الأمل للمُعاقين).

كَفَن الأستاذ

انـــتهت قـــصتي معه دون خاتمة، فقد انفصلنا دون مواجهة، لم نتـــبادل كلمة واحدة و لم نكلف نفسينا أن ينظر كل منّا للآخر نظرة الوداع الأخيرة. كنتُ قد حزمتُ أغراضي على عجل ونقلتُ الحقيبتين الثقيلـــتين مـــن غـــرفتي إلى الصالون، ورغم اختناق روحي بالغضب والحقـــد، فإنني تنبهتُ لدفء شمس الخريف الصباحية التي تغمرُ المكان بـــدفء لطـــيف جعل قلبـــي يلين. أدركتُ كم سأفتقد المكان، أما هو – الذي يثقل وجوده على قلبـــي كصخرة – فأستميت لأمحوه من ذاكرتي.

كـــان يعـــرف أني أغادره مستاءة، تجاهلني وهو يمارس طقوس إفطاره ذاتها والمذياع بجانبه يستمع لنشرة الأخبار الصباحية في محطات عدة، كنتُ أحشو أذني بسدادات مطاطية كي أخفف جعير المذياع، ما ذنبـــي إن كان سمعه ضعيفاً؟!... ومن غير أن أنظر إليه مواجهة لمحتُ صـــورة وجهـــه منعكـــساً في النافذة، وجه قاسي الملامح كأنه تجمّد، ضـــغطت زر المصعد وبانتظار وصوله إلى الطابق العاشر تأملتُ الشقة الفاتـــنة بحـــنان كـــبير عارفة كم سأفتقدها، نقلتُ أغراضي إلى غرفة المـــصعد، تـــركتُ بابه مواربا وعلى طاولته التي تناثرت عليها أوراقه وكتبه رميتُ له مفاتيح الشقة.

قلتُ بصوتٍ عالٍ محاولة أن أكظم غيظي: ها هي المفاتيح.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

لم يلتفت و لم يرد بكلمة، تابع طقوس إفطاره، صفقتُ الباب بقوة صـــفقة أشبه بالصفعة تمنيتُ لو أوجهها إلى وجهه وأسرعتُ أهبط إلى أرض الواقـــع وأنـــا أردد بنفاذ صبر عبارة بدت لي لانهائية: الحمد لله ارتحتُ منه، الحمد لله ارتحتُ منه.

عبرتُ الشارع العريض وأنا أجر الحقيبتين الثقيلتين لكني وجدتُ تعبـــي لذيذاً فهو يعني تحرري منه، لا يزال قسم من خيالي يتفرج عليه شـــامتاً، سيضطر إلى جلي الأطباق، فالجارية - زوجته - هجّت منه ومن عالم أنانيته المرعب.

بـــدأ مطـــر كسول بالتساقط أنعش وجهي المتصلب بالغضب، أحســـستُ بجـــوع ورغبتُ بشرب القهوة، لم أنتبه لارتعاش يدي من الـــتعب إلا حين هممتُ بحمل الحقيبتين إلى صندوق التاكسي، أسرع الـــسائق الـــشاب يساعدني وهو يحدثني بصوتٍ متعاطف: هل يُعقل يا أختي أن تحملي الحقائب وأنا موجود؟!...

كـــم كـــنتُ أحـــتاج لصوتٍ إنساني صادق وحقيقي، ومن مقعدي الخلفي تأملتُ بحرية وجه السائق المنعكس في المرآة الأمامية للسيارة، قدرت أنه في الثلاثين، ما أجمله... عيناه زرقاوان وأهدابه كثـــيفة، أنفه مستقيم وشفتاه رقيقتان، أحسستُ كم ابتعدتُ عن عـــالم الـــشباب النضر فكل أصدقاء زوجي كهول. وجدتني رغم مـــصيبتي الطازجـــة مفتتنة بعالم الشباب، تمنيتُ لو ألامس الوجه الفـــتي، أتحســـسه بجلده الطري المشدود، العنق الرشيق المشدود، والـــشعر الكـــستنائي المجعّد، يا لعطر الشباب الفاتح للشهية على الحياة...

سمحـــت لي نظارتي الشمسية السوداء بتأمل الشاب بحرية، أتراه متزوج؟... تفحصتُ أنامله الرشيقة فلم أجد خاتماً، أحسستُ بالرضى

لكـــأني معنـــية بحياته، رغبتُ بقوة بالتحدث إليه، قلتُ له: من حسن الحظ لا يوجد ازدحام في الطريق اليوم...

قال: بالطبع، بيروت لا تزال نائمة فاليوم أحد.

لكـــني تمنيتُ لو يكون الازدحام على أشده كي أستمد شيء من العون والدفء من وجه السائق. لم أنجح في تخفيف حالة الغيظ والتوتر في نفـــسي، وحين وضع السائق الحقيبتين عند باب الفندق، تمنيتُ لو أملك الجرأة وأتوسل إليه أن يمضي معي بعض الوقت لنتحدث عن أي شيء.

استقبلتني موظفة الاستقبال بحفاوة مصطنعة وخيرتني بين غرفة في الطابق الرابع وأخرى في الطابق السابع.

قلتُ لها: أريد الأكثر هدوءاً.

ومن شرفة غرفتي في الطابق السابع، لم يبدُ من بحر بيروت سوى شـــريط رفـــيع بعيد، أخذتُ نفساً عميقاً وجلستُ على المقعد بانتظار القهـــوة والفطـــور. صفعني خيالي بصورة زوجي الكهل يشرب قهوته علـــى الشرفة الفسيحة، والبحر سخياً أمامه، ورغم كرهي الصريح له فإنني أحسستُ بشفقة حقيقية عليه، تلك الشفقة التي يثيرها الكهول في أنفسنا.

وضـــع الـــنادل صـــينية الفطور الشهي على طاولة صغيرة على الـــشرفة، شكرته وأنا أنقده بخشيشاً جعله ينحني لي. ومن أول رشفة قهـــوة ســـالت دموعي بسلاسة كما لو أنها تفيض من بحيرة راكدة في أعماقي. رحّبتُ بالبكاء فهو سيساعدني في التحلل من توتري.

غـــريب كـــم تعطيني القهوة نشوة روحية حقيقية ومع الفنجان الـــثالث حاولتُ أن أستوضح فكرة تعذّبني، لكني لا أجد إليها سبيلاً، كـــان عليّ أن أبدأ في فهم حالتي انطلاقاً من فكرة، لكن لِمَ تستعصي علي هذه الفكرة وتعاندني؟!...

لا يجـــب أن أتجاهل تعبـــي وتوتري، فأنا لا أعي من ذاتي سوى قلبـــــي المـــشروخ بحـــب كبير، ترى من أين أبدأ؟... لكن هل من الـــضروري أن نبدأ دوماً من نقطة معينة كي نستجلي أمراً يعذبنا؟... الخبـــز الطـــري أشعرني بالجوع، أكلتُ بشهية زبدة مع مربى الفريز، صـــفعني وجهـــه يحـــدق بـــي بنظرات مؤنبة بوجوب ابتعادي عن الـــسكريات والدســـم، أدركـــتُ أنني سأحتاج زمناً طويلاً كي أمحو صورته، تحديداً لأتخلص من سموم هذا الرجل.

هـــل الـــرجل سم؟!... يجب أن أبرأ منه. وجدتُ نفسي أنتفض فجأة، أشمر عن ساعدي كما لو أنني سأستأنف شجاراً، أحدّق بأوراق بيضاء على الطاولة... وجدتني أكتب دون تفكير: أنتظر كرهك لأردَّ عليه بكره أكبر.

فاجـــأتني هـــذه الـــبداية، تحررتُ من ثيابـــي، فتحتُ حقيبتي وأخـــرجتُ قميصاً فضفاضاً أزرق اللون يعطيني هدوءاً وراحة، وعيتُ كـــم أن ألم روحـــي حـــاداً، ترددتُ هل أبتلع حبة مهدئة أو أتحمّل أوجاعـــي النفسية، لكني تنبهتُ أن الألم أعطاني حساسية مرهفة أشبه بذكاء خاص، حدستُ أني سأتمكن من تشريح وضعي بدقة هائلة كما لو أنني أُدخل نفسي تحت المجهر الإلكتروني.

كانـــت رغبة عارمة تعتمل في نفسي بأن أوجه له ضربة قاضية، وقد بدأتُ تلك الخطوة بالفعل حين تركته بتلك الطريقة.

لم يـــسطّر قلمـــي ســـوى تلك العبارة، رغم رغبتي العظيمة في الكـــتابة، لكني تذكرت تعبـــي وتوتري ليلة أمس، وكيف لم أستطع الـــبقاء في سريري بل قمتُ إلى الشرفة رغم البرد وأخذتُ بالمشي على طـــول الـــشرفة ونظري معلّق بالموج الفضي الملتمع بنور شاحب لقمر وحيد مثلي.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

مشيتُ لساعات إلى أن أطلّ الفجر المزرق الناعس، لدرجة آمنتُ أن هـــذه الـــشرفة صـــممتْ بـــذلك الطول من أجل امرأة وحيدة ومخذولة... لم يخفف المشي من غلواء غضبـــي وحقدي، بل إن ذاكرتي اللئيمة أخذت تصفعني بصور شديدة القسوة والإيلام من علاقتي معه، وحين دخلتُ غرفتي أخيراً لأن مفاصلي آلمتني من المشي والبرد أدهشني وجهـــي، حاولتُ أن أتعرف هذا الوجه المرتسم في المرآة وجه منهك وقد بلغ ذروة عدم التحمل، عينان واسعتان بنظرة قاسية، كنتُ متجلية كلياً في تلك النظرة المصممة الفاقدة الصبر والتي تنذر بكارثة. نظرة من يطل على شفير هاوية ويتحدى الفراغ السحيق تحته.

ومـــن شـــدة غضبـــي صفعتُ وجهي، التهبَ خدي ألماً وأخذ جـــسدي الـــضئيل يرتجف، كنتُ راغبة بالصراخ والبكاء حتى تنشق حنجرتي، لكني بقيتُ خرساء أحدق في وجهي في المرآة، انتهى مخاض الألم والغضب حين قررتُ جمع أغراضي وهجره.

اســـتلقيتُ علـــى السرير، أغمضتُ عيني شاعرة كيف يدغدغ الـــنعاس أطـــرافي وأهدابـــــي، ابتسمت لصورة السائق الوسيم الذي أوصـــلني إلى الفـــندق وتخيلتُ كيف تغازله حبيبته، داهمني غثيان وأنا أتذكـــر جـــسد زوجي العجوز كم هو مترهل ومقرف، ياه.. كيف تزوجته وعمره يزيد عمري بأكثر من ربع قرن.

سلطان النوم يغطيني، أسدلتُ الستائر على ذاكرتي ونافذتي وقبل أن أغفـــو أدركـــتُ أنني للمرة الأولى صرتُ أمتلك موهبة النظر إلى الحقيقة وجهاً لوجه.

هل استفاقت ذكرياتي وأنا نائمة، هل غفوتُ حقاً، أم استسلمتُ لشريط الذكريات؟!.. أتفرّج عليه للمرة الأولى بعد أن زالت الغشاوة عـــن عـــيني، ولم يبقَ لي أي وهم أخدع به نفسي. لكن لِمَ تبدو تلك

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

الذكـــريات غـــريبة كأنها لا يمكن أن تكون لي؟... ماذا فعلتُ طوال ســـنوات سوى خداع نفسي؟... كنتُ أرى حقائق فأجبر نفسي على التشكيك بها، فلا أثق بما أرى!!...

انتـــصر عليَّ حين جعلني أؤمن أني لا أستطيع الاستغناء عنه، وقد طـــواني بين جناحيه من اللحظة التي قررتُ فيها أن تكون أطروحتي في التخـــرج مـــن قـــسم الفلسفة عنده، لا أنكر أنه فتنني بثقافته الواسعة وبالمـــراجع الغنية التي دلّني إليها، كنتُ أُسحر بلهجته التي لا تحمل أي انفعال، فيبدو لي بعيداً، منيعاً، من الصعب الحصول عليه، كان يشجع الطـــلاب على زيارته في مكتبه الخاص ليس لرغبته في مساعدتهم، بل لـــسبب أعمـــق أدركـــته متأخرة، فهو يريد أن يجمع كل الناس على الإعجـــاب بـــه، وكان يتعامل مع من حوله بأُبّهة وفخامة كأنه يعتبر وجـــوده بين الناس شرفاً لهم، جذبني غموضه وتعاليه كما يجذب النور فراشة ليحرقها، وابتدأ بيننا ما سمّاه رفاقي غرام الطالبة بالأستاذ. حذّرني المقـــربون من فارق العمر الكبير بيننا، لكني كنتُ أشعر بالزهو كونه اختارني لأكون زوجته.

انـــتقلتُ إلى عـــالم الكـــبار والمشهورين، وصرتُ زوجة المفكر والأســـتاذ الجامعي الشهير. في السنوات الأولى من زواجنا عاملني كما لـــو أني جوهـــرة ثمينة يحرص على صيانتها وبلغت حاجته لي كحاجته للمـــاء والهـــواء فلـــم يكن قادراً على فراقي بل يصحبني معه إلى كل المؤتمـــرات التي يحضرها، ويعرفني بشخصيات شهيرة لم أحلم يوماً أن ألتقيها.

كـــان أسلوبه في التعامل معي ذكياً لدرجة صرتُ أشعر باستمرار أنـــني مدينة له بكل شيء، ثم بدأ موضوع الحمل يؤرقني، كل الأطباء الذين استشرتهم أكدوا لي سلامتي وقدرتي على الإنجاب، كنتُ أرجوه

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

أن يعـــرض نفـــسه على الأطباء، فينظر إليّ نظرات استخفاف ولا يرد بكلمة، ثم تحوّلت نظرته إليّ إلى نظرة عدوانية لاشعورية، وبدأت تصلني همسات أن طلاقه من زوجته الأولى كان بسبب عقمه.

دخلتُ مرحلة جديدة في حياتي معه، إذ صرتُ أتأرجح بين الأمل واليأس وبين اليأس والأمل باستمرار. لم أكن أصدّق أن حياتي يمكن أن تستمر من دونه، فهو في قلب وجودي وقد شُغفت به وآمنتُ بعظمته. كان يحاول إقناعي أن موضوع الإنجاب تافه وبأننا زوجين خُلقا لغايات نبـــيلة!!... لم أكن أملك الجرأة لأصرخ بوجهه: ليس هناك أروع من إنجـــاب طفل، لكن نمط حياتي اللاتقليدي معه والأسفار ولقاء المشاهير في عالم الفكر والثقافة جعلني أُوهم نفسي بأني أعيش بطريقة راقية، غير تقليدية.

ثم فوجـــئتُ أن حبـــي له عاد للانتعاش لسبب وحيد أنه خاسر، ولأنـــه لم يعد يملك أي إغواء يقدمه لي، وفهمتُ أن الشفقة أقوى من الحب بما لا يُقاس.

كـــنتُ في الثانـــية والـــثلاثين وهو في الستين، وقد داهمه العجز الجنسي كُلياً، في حين كانت رغباتي ناضجة كثمار تنتظر من يقطفها.

لم أفهـــم كيف تغيّر تعامله معي، فقد أخذ سلوكه منحى غريباً، الـــسخرية من كل أفكاري وطروحاتي. حارب رغبتي بالحصول على الدكتوراه، لكني صممتُ على الدراسة فصار صمته يزداد ثقلاً، كان له أســـلوب مدمّر في الصمت، صمتٌ مزدري يدوم أياماً، كنتُ أشرف على فقدان صبري من صمته العنيد، حاولتُ أن ألّينه بحبـــي واهتمامي فكـــان يـــزداد تصلباً.... وكنتُ أتفرّج عليه كيف يتحول إلى إنسان صـــامت صـــمتَ القبور ولا يضمر أي مودة لأحد!... كان يصغي لكلامـــي حول وجوب بث الدفء في علاقتنا ووجهه يعبّر عن احتقار

ســـاخر ويُفهمني بطريقة ما أن كل ما أقوله لا يحدث فيه أي تأثير، ثم بـــدأ ينعـــزل عـــن الناس متضجراً من كل أصدقائه، أظنه بدأ ينعزل لإحـــساسه أن نفوذه ووهج سلطته على من حوله بدأتا بالانطفاء. فلم يعد يملك إغواءه القديم.

ثم اقترح أن يستقل بغرفة نومه، ولم تفلح جهودي في جعله يُعالج عجـــزه الجنـــسي، نفاني خارج حياته، عندما أصرَّ أن يكون لكل منا غـــرفته الخاصـــة وصـــار لا يتوجه إليَّ بالكلام إلا نادراً، لكن نظرته المتفحصة والمنتبهة ظلت تلاحقني طوال الوقت.

دخلت علاقتي معه في نفق الضلال والذهول - كما أحسستُ - صـــرتُ أنتبه كيف أبدّل تعبير وجهي ما أن يأتي، وتحت مظاهر الألفة والحب الذي أظهره له كان يتفجّر كرهي العميق لشخصه كما لو أني مـــصابة بدُمل تحت جلد مُعافى. ثم بدأ شعور محيّر بالخوف منه ينمو في أعماقي، خوفاً غامضاً سرياً لا أفهم كنهه، ما الذي يخيفني فيه؟ صمته؟ تجهمـــه؟... ما أدهشني أنه صار يمضي إلى شيخوخته بخطى سريعة، ثم صـــار يبتكر أساليباً لتعذيبـــي، فهو يحس بلهفتي للحديث كي نخرق رصاص الصمت بيننا، فيهم أن يقول شيئاً مُلاحظاً تنبهي السعيد، لكنه يتـــراجع ويعود للصمت، صار من مهامي تحليل صمته، فوجهه المُتعالي الـــصامت والمتخشّب يعني رسالة خفية يرسلها لمن حوله، رسالة تعني: امدحـــوني وعظّموني فأنا أعشق المديح، ومن حسن حظه أن الكثير من تلامذتـــه كانوا يمدحونه حَرجاً ولباقة حين يجدونه مثل أبو الهول جاثماً بينهم مجللاً بصمت الرخام.

مـــا عدتُ أعرف هل يفيد الحديث معه أم لا؟.. صرتُ أتساءل لماذا يتعمّد أن يهينني بلا داع، فأحياناً أُجبر نفسي أن أكون سخية معه بعواطفـــي، فآمر وجهي أن يُشرق بوجهه المتجهم وأهم أن أقبّله قبلة

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

الصباح، فيبعدني عنه ويسألني بسخرية: هل نظّفتِ أسنانك؟!.. أكظم غيظـــي وتـــنفلت شتائم خرساء من روحي ويخطر لي لو أرد ساخرة: أسناني نظيفة معافاة وليست مثل أسنانك المتآكلة مع العمر والتدخين.

ذات مساء ألححتُ عليه لمرافقتي لحضور فيلم سينمائي ووسط ازدحام والعتمة شعرتُ بيده القاسية تدفعني بقسوة وحقد في ظهري حـــتى كـــدتُ أسقط، وحين التفتُ إليه متألمة ومباغتة من تصرفه، تجـــاهلني كلياً ورفض أن يعلّق بكلمة حول دفعه لي بتلك الطريقة الوحشية.

إنـــه يسعى لتدميري روحياً ونفسياً ورغم أنه لم يحدثني أبداً عن زوجته الأولى إلا أني عرفتُ أنها أدمنت على الكحول بسبب إهماله لها. كان يمكن أن أبقى مضللة أسيرة شعور أنه رفعني إلى فوق وأنني مدينة لـــه طـــوال حياتي بمستوى المعيشة الراقي الذي عشته. إلى أن حلّ يوم مناقـــشة رســـالتي للدكـــتوراه، فتعلل بالمرض وطلب إليّ ألا أذهب، اعـــتقدتُ أنـــه يمزح، كان وجهه مثل قناع وأخذ يسخر من الأساتذة الذين سيناقشون رسالتي متهماً إياهم بالغباء والسخف.

تنبهتُ لأول مرة أن السمة الأساسية في طبعه هي الحسد فهو لا يقـــدر على مدح أحد ويميته شعور الندية، إن غروره رهيب حقاً فهو يعتبر نفسه إلهاً ويحب أن يتصور الناس حوله أقزاماً ولم يعد يشعر نحوي بأي شعور سوى تلذذه أن يظهر لي الاحتقار!!...

كـــان يتكلم كعادته بلهجة لا تحمل أية عاطفة أو انفعال، كنتُ أجهـــل زخم المشاعر المضطربة التي تعتمل في داخلي، فأنا لا أرى إلا السطح، لا أرى إلا وجهي المحتقن بالغيظ وعدم التصديق، ولأول مرة سمحـــتُ للهـــيب الكره أن يسطع في عيني فاستفاق حقدي كاملاً بهياً حين صممتُ على نيل الدكتوراه، وصلته سموم حقدي فارتعش، لكنه

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

حـــاول أن يـــسيطر على الموقف فاتخذ مظهر من يرغب بحمايتي ولا يرضى أن يمنحني أساتذة تافهون الدكتوراه!...

جلستُ مقابله على الكرسي الهزاز، رفعتُ تنورتي عالياً، داعبتُ فخـــذي بجرأة وقحة وأنا أنظر إليه بسخرية، لم أرغب يوماً أن أكون لئـــيمة كما كنتُ يومها، سلوكي أشبه بصفعة قاتلة وحكم قيمة على عجزه ونهايته.

اســـتمريت أداعـــب فخذي باستفزاز جعل أنفاسه تتسارع من الذل، قلتُ له: سيدهش الحضور لغيابك.

ورغـــم مظهـــر اللامبالاة والسخرية الذي ينجح دوماً في تصنعه فـــإنني أحسستُ بخوفه الحقيقي من خسارتي، لعله أدرك أن طاقتي على خداع نفسي وتحمله قد نفذت وأن هذا الزوج المهم الذي كنتُ أتباهى بـــه قد تحوّل إلى رجل حاقد معقّد لا يحتمل أن تنافسه زوجته في علمه ومكانـــته، فهمت أنه رغب أن أنمو إلى حد معين يحدده هو، هو الذي يحدد سقف نجاحي، إما أن أتساوى معه أو أتفوق عليه فهذا شيء فوق طاقته.

عـــرفتُ بالصدفة أنه يمزق دعواتي لحضور المؤتمرات العالمية في الفلـــسفة وعلم النفس ويعتذر نيابة عني عن حضور تلك المؤتمرات بيـــنما يـــسافر وحده مصراً على عدم اصطحابـــي متعللاً بأعذار تافهة.

عـــبرتْ جسده رعدة خوف، إنه يعرف أن غيابـــي من حياته ســـينـــزل علـــيه نـــــزول الصاعقة، لكنه يرفض أن يلين ويعتذر ويعـــاملني برقة ولطف لأن غروره المتصلب يمنعه من الاعتذار، إنه مـــستعد أن يدمّر حياته ويعاني مرارة الفقدان والهجر على أن يتوب عن غروره.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

وها أنا أستعمل أسلوبه ذاته، فأحدثه بصوت لا يحمل أي انفعال، صوت متكبر ميت بأني أريد أن أحقق ذاتي وبأني أنتظر قبولي كأستاذة محاضرة في جامعة البحرين.

لم أبالِ بنظرته المهددة الحاقدة التي انغرست في وجهي حين قلتُ له إن كل مقالاته وكتبه عن الإيمان بقدرات المرأة وتحررها مجرد كلام كاذب وسخيف وبأنه في أعماقه يسعى لتدمير تفوق المرأة.

أحسستُ أني أهوي، فانتفضتُ مجفلة، هل كنتُ أحلم؟... أم أستعيد لقطات من حياتي على مهل؟!... وفي هذه الغرفة الغريبة أحسستُ بأمان افتقدته لسنوات، فكل شيء هناك - حيث يسكن المفكر الشهير - مشبع بروحه الميتة.

أعطتني عتمة الغروب الرؤية وبدت لي حياتي معه أشبه بسحابات من فراغ.... لماذا بقيت معه كل تلك السنوات؟... ألأني أقنعتُ نفسي أنه قدري؟... هل آمنتُ أنه عظيم لدرجة لا أتحمل التشكيك بعظمته مهما بدر منه؟!...

كم كنتُ مضللة إذا اعتقدتُ أني سأبلغ سمواً ورقياً نفسياً وفكرياً بزواجي منه!... لكن السنوات تتابعت ولم أصل إلا إلى ظلمة روحه... من العار حقاً أن أكون تعيسة لهذه الدرجة، أن أتجاهل حاجتي للإشباع العاطفي والجنسي، لكن هل نفع الندم يوماً؟!...

خرجتُ إلى الشرفة، شهقتُ مفتتنة بروعة الغروب، كانت الشمس مرآة روحي ببهائها وكبريائها، روحي تستفيق من غيبوبتها، وعيتُ بعمق حريتي، أحسستُ روحي رشيقة كسنبلة، ضحكتُ من كل قلبي فنومي لساعات طويلة دليل استعادتي لعافيتي النفسية، دبَّ فيَّ نشاط كبير، ارتديت ثيابي بنفاذ صبر ولم أنتظر حتى أسرّح شعري أو أتزين. وحين لم يلبِ المصعد ندائي المتلهف هبطت الدرج

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

بقفـــزات كبيرة، بحلقت بـــي عاملة الاستقبال بقلق وهي تراني منطلقة كالسهم خارج الفندق، لحقني صوتها المتلهف: خير يا مدام هل...

قلتُ: تأخرتُ عن موعد هام.

- هل تريدين مساعدة؟

ضحكتُ منتشية، لوّحتُ لها وأنا أقفز إلى الرصيف....

لا يا عزيزتي، لا أحتاج لمساعدة أحد، لأن موعدي في اللامكان، حيث سأنـــزع جلدي القديم وأجعله كفناً للأستاذ...

سراب

كانت تتأمل ظلال الأغصان والعصافير المغرّدة التي تلاحق بعضها بعضاً في غابة الصنوبر التي اعتادت أن تمارس رياضة المشي فيها، وحيدة دوماً وحيدة أبداً، لكنها هذه المرة أحسّت أن هذه الظلال هي تعاريج أفكارهـــا ذاتها، التي تدور حول حلقة مفرغة. توقفت عن المشي لاهثة وشـــعور مباغتٌ بالغضب تفجّر فجأة في روحها على غير توقع منها. داست بقسوة على أوراق الصنوبر التي تفرش الأرض فأصدر تكسّرها أنيناً. فكرت وشرارة الغضب تكتسح كيانها أن عمرها هُدر وهي تفكر بالأشياء ذاتها التي تتمنى القيام بها لكنها تعجز. أحست بعطش وندمت كـــونها أكلت قطعة شوكولا قبل رياضة المشي. سمم الغضب روحها، ففقدت شهية المشي.

جلـــست تحـــت شجرة صنوبر ضخمة وأخذت تكسر الأوراق الإبرية بخشونة وقسوة وثمة قرار غامض يتشكل في روحها، كانت تردد بتـــصميم حماسي عبارة: آن أوان التغيير، لم أعد قادرة على تحمّل هذا الشكل الباهت اللاإنساني لحياتي.

تنبهت لحقيقة أفزعتها وهي أن مشاعرها صارت متبلدة تماماً، لا شـــيء يفرحها ولا يثيرها، فكرت أنها عاشت سنوات شبابها وكفاحها الطويلة متسائلة كل يوم: ماذا أنوي أن أفعل بحياتي؟ و لم تفعل شيئاً في الواقع سوى أنها نـــزفت كل طاقاتها الحيوية كي تؤدي الدور المقدس

الـــذي أقـــنعوها أنها نذرت لأجله: أم قدرها أن تترمل وهي في الثالثة والـــثلاثين ولديها ثلاثة فتيات يتحلقن حولها راسمات دائرة تسجنها في مركزها.

منذ وفاة زوجها أحست بواجب نبذ أنوثتها، وأن عليها أن تنسى أنهـــا امرأة تكتمل برجل، كانت تتخيل دوماً أن ثمة حزام عفة حديدي تلبسه، ومفتاحه في يد غول يده ضخمة ومعروقة هي يد المجتمع. بالغت في إحساسها بالمسؤولية، وتفانت في خدمة بناتها... سمعتهن مثل ورقة الـــسيجارة، أقـــل كلمة تمزقها... أقنعت نفسها أنها بقدر ما تضحي وتعطـــي تكـــون عظيمة... أليست الجنة تحت أقدام الأمهات... هل يوجد أروع من أن تكون المرأة أماً!

طـــوال ســـنوات كانت تشعر أنها جندي في معركة، كل صباح تـــشحذ قـــواها وتتأهب لخوض يوم شاق، تعطي وتعطي، ماضية في كفاحها حتى النهاية.

أعطـــت للجميع انطباعاً أنها امرأة قوية، ومستقلة، عارفة وحدها أنها هشّة مثل هذه الأوراق الإبرية التي تكسّرها بقسوة.

وفي لحظـــات نـــادرة، كانت تتمتع برؤية كاشفة لقراءة أعماقها بوضـــوح متحدية رقابة عقلها الذي حاول دوماً تشويش أعماقها، في تلـــك اللحظات النادرة تتمكن من رؤية الزخم الأنثوي الكبير المقموع داخلـــها، وتلامس تلك الطاقة العملاقة في أعماقها والتي يسعى العقل لسحقها وتقويضها.

فكـــرت أن الأنوثة طاقة، بل إنها الذكاء الخاص للمرأة، تذكرت كيف ذوت روحها في كفاحها عاماً بعد عام من أجل تربية بناتها تربية مثالية - كما يريدون - لم تنتبه كيف فقدت عفويتها فصار كل شيء يضجرها، و لم تعد تضحك من قلبها...

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

حتى حين تتلقى تقدير بناتها، وفخرهن بها، كونها كرست حياتها لخدمـــتهن، تحس بالضجر وتقاوم رغبة عنيفة بالسخرية من كل تلك القيم التي اتبعتها بدقة متظاهرة أنها مؤمنة بها في العمق!

لم تنتـــبه أن نحلـــة تسللت من فتحة قميصها ولدغتها في كتفها، أيقظـــت فيها تلك اللدغة المباغتة شهية عارمة للحياة، لتحرير مشاعر دفـــنت عميقاً في النسيان انتفضت واقفة وابتسامة غريبة تعلو وجهها، سرحت في قرص الشمس الناري المثير، أحست أن حلاوة الحياة رائعة حقاً، بل أحست بطعم حلو في فمها.

عـــادت إلى بيتها، دخلت غرفتها ورمقت سريرها البارد بكره، حـــسبت أنـــه مضى خمسة عشر عاماً لم يلمسها رجل! لقد ختنوها جسدياً وعاطفياً دون أن يحتاجوا لمبضع جرّاح، صار الرجل مثل كائن خـــرافي بعيد بعيد ليس له وجود حقيقي في حياتها، لقد فقدت ذاتها في رحلة نضالها التي توجت بعدها أم مثالية وإنسانة مهشمة في الداخل.

تفـــوقت بناتها في دراستهن، وخُطبت اثنتان لشابين يتمتعان بكل صـــفات العـــريس اللقطة، رفعت سماعة الهاتف لتدير رقماً، ولم تبال بصيحات التحذير والاستنكار تنفلت كصفارات الإنذار من عقلها.

أتاهـــا صوته متفاجئاً لكن سعيداً، كان زميلاً لها التقته في دورة تدريبـــية للمعلمين... تذكر أنهما تحدثا مطولاً في كل شيء... وخلف عبارات الحديث العادية والمنمّقة كانت ترسم مغامرتها، وتتخيل كيف سيلتقيان...

تمـــت الأمور كما توقعت تماماً، ادّعت أنها تستفسر حول قضايا تعليمـــية، وانتهت المكالمة بأن تواعدا على اللقاء، من حسن الحظ أنه يـــسكن مدينة تبعد عن مدينتها ساعتين، المهم أنه غريب، ولن يعرفه أحد، حين سيتسلل إلى شقتها.

نقعـــت جسدها لساعتين في ماء فاتر معطّر، اشترت ثياباً داخلية مثيرة من الساتان والدانتيل... وحين جلست لتنتظره، لم تستطع كبح هـــيجان طوفان من المشاعر المثارة والمُبتهجة... حضّرت مائدة شهية، مـــن أفخر أنواع الأسماك والمقبّلات... ولم تنس الموسيقى الرومانسية، وزجاجة النبيذ الأبيض المثلجة...

تـــوقعت أنه سيدخل بيتها حاملاً باقة كبيرة من الورود الحمراء، لكـــنها ســـرعان مـــا عذرته لأن باقة الورد ستلفت الأنظار وتفجّر الشائعات... وضع كيساً على الأرض فابتسمت عارفة أنه يضم هدية لهـــا... أحـــست بـــشهوة حارقـــة أن تلمس جلده الأسمر وعضلاته المشدودة، تأملته بشوق وهو يأكل السمك بشهية ويشرب النبيذ، قبل يدها ممتناً، فسرت شرارة في جسدها من ملمس شفتيه الدافئتين.

أشار إلى الكيس بخجل وقال: إنه لك.

شـــكرته، وأخرجت محتوياته، فوجئت وهي ترى سبعة قطارميز متماثلة مختلفة في اللون، سألت: ما هذا؟...

قـــال إنه يعمل عملاً إضافياً في معمل للفازلين، وبأنه أحضر لها نمـــاذج مـــن الفـــازلين الممتاز... فازلين بالنعنع، وآخر بالورد، وآخر بالحبق...

سألته بسخرية وهي تقاوم خيبة أمل مُرّة: ولِمَ كل هذا التنويع...

لم يجد ما يرد به فضحك.

أحـــست بالقرف وهي تنقل نظرها بين مائدتها الشهية، وهداياه الشحيحة لكنها وجدت نفسها تتجاهل إحساسها ببخله، لأنها مصممة علـــى خـــوض تجربة تعرف كم هي ضرورية وإسعافية لها... تريد أن تلمس هذا الكائن الخرافي المنفي من حياتها تريد رجلاً... ببساطة ومن دون تعقـــيدات الأخـــلاق. تـــريد رجلاً يرمم شروخ روحها ويعيد

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

الالـــتحام بـــين أنوثـــتها وإنسانيتها. أصرت على الظلام حين وجدا نفـــسيهما فـــوق الفـــراش، لا تملك الجرأة أن يرى جسدها في النور، جسدها الذي لم يعد فتياً...

شـــعرت أن عقلـــها يُـــشل، وأن نسغٌ حار أخذ يتدفق ببطء في عروقها...

بدت مبهورة بالعناق الحار، والجسد الجميل الملتصق بها، شعرت أنهـــا تقف على حافة جرف عميق عميق لا قرار له، وبدت لها سنوات عمرها الطويلة التي لم يكن في قلبها رجل مرعبة حقاً... ثمة رعب فظيع يتفجر من سنوات عمرها...

لم تـــتوقع أن جسدها المتخشب من الحرمان، وغريزتها المودعة في ثلاجـــة ســـيولد منهما كل تلك الحيوية، أدهشتها تلك المرأة المعطاءة المتفجرة بالأنوثة والرغبة...

أهـــي حقـــاً تلك المرأة!! وحين ولجها شعرت أنها تستعيد حياة أخـــرى عاشـــتها في زمـــن آخر، كانت مبهورة ومثارة حتى الحدود القـــصوى، ولم تتوقع أن وصالها مع هذا الغريب سيكون بتلك الروعة المدهشة... ضحكت حين رقد بجانبها، يمسح العرق عن صدره، سألها: لماذا تضحكين...

سيطرت على نوبة ضحكها بصعوبة وقالت: أحس بصدمة المعجزة.

ســـألها إن كانـــت تمانع أن يشعل سيجارة... رحبت بفكرته، وأخذا ينفثا الدخان شعرت أنها بطلة في فيلم، أغمضت عينها متحسّسة نـــشوتها العميقة وتلك الطراوة الخلابة في جسدها ومشاعرها، همست لنفسها: الآن أحيا.

قامـــت إلى المطبخ لتحضر صحن الفاكهة... حبات كرز قرمزية لذيـــذة، لكـــنها حين أمسكت صحن الكرز، صعقت، كانت عيونهن

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

تحـــدق في وجهها باحتقار ولوم فظيعين... ياه كيف تقمصت عيونهن حـــبات الكرز، سقط الصحن من يدها، وتبعثر الكرز على البلاط... صرخت متحدية:

- لم أذنب بحقكن...

صرخن: ماذا، أنت أمنا، شرفنا، عرضنا، كيف، كيف تطوحين بشرفك وشرفنا وتضاجعين غريباً...

صرخت: اخرسن، أنا من لحم ودم.

عـــادت إلى الفردوس، حاملة الفاكهة المحرّمة، التهم بضعة حبات مـــن الكرز وعاد ليشدها إلى جسده المتين، استأنفا وصالاً محموماً... شعرت أن جسدها يُزهر روحها أيضاً... ياه ما الجسد، وما الروح؟!

أدهـــشها أنها فاعلة، تغزو وتقتحم وتبادر، كانت أنثوية بشكل عميق وحقيقي.

همس في أذنها: أنتِ من النوع الذي يعبده الرجل.

همّـــت أن تـــبوح لـــه أن نشوتها معه كانت هائلة، لكنها آثرت الـــصمت... كانت أحاسيسها متوهجة وهي تعي روعة الانسجام بين جـــسديهما... أدهشها أن جسدها يستيقظ من سبات طويل طويل، جـــسد لا يزال ينبض بالحياة والحب... ياه بدا لها عمرها رمادياً فاتراً، فكرت: لم أكن سوى ميته ناجحة... راق لها هذا التعبير... أجل ما أنا سوى ميته ناجحة.

حـــين ودعـــته وهـــي تلف عنقه وتقبله قبلات نهمة، قالت له ضاحكة: هل سمعت عن حبة الحنطة التي وجدوها في قبور الفراعنة...

سأل: ما قصتها؟

قالـــت: تصور رغم مرور آلاف السنين، لكن حين زرعوا الحبة أورقت.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

نظر متسائلاً عن مغزى تلك القصة...

انفجرت بضحك صاخب وهي تقول: حبة الحنطة هي جسدي.

اتفقـــا على اللقاء بعد أسبوع، من حسن الحظ أن بناتها في رحلة سياحية إلى اليونان...

اشترت له قميصاً ورديّاً جميلاً، وربطة عنق كحلية... فكرت أنه سيحضر لها هدية قيّمة بالتأكيد...

لكـــنه حين دخل بيتها كان يحمل بيده كيساً، وقبل أن تسأل... جرفتهما الشهوة إلى تشعباتها والتواءاتها، كانا يعيان مدى الانسجام بين جسديهما، نادراً ما يُخلق هذا التناغم الساحر بين رجل وامرأة، كانت تـــشعر أنها تخزّن كل لمسة وكل تنهيدة وكل تقلص عضلة في أعماق روحها، في ذاكرة روحها وليس ذاكرة عقلها... وصلت مراراً لنشوة عميقة، نشوة طردت عفن سنوات العفة القسرية...

وحـــين اتجهـــت إلى الحمام، لم تتعرف وجهها في المرآة، كانت مُزهرة، وردية متفتحة، آمنت أنها صغرت عشر سنوات على الأقل...

قدّمت له القميص وربطة العنق، فقبلها بامتنان... ولم تعرف أي حـــدس جعلها تؤجل فتح الكيس حتى ينتهيا من عشاء لذيذ انشغلت بتحضيره يومين...

أكل مستمتعاً وأثنى على طبخها الشهي...

سألته: هل هذه هدية لي...

ابتسم: أجل...

صعقت إذ وجدت أن الكيس يضم عدة قطارميز من الفازلين... ودّت أن تبصق بوجهه، أيعقل أن يكون بخله مريعاً لهذه الدرجة... ألا يقـــدر أن يشتري هدية لائقة لها! أيحضر لها هدايا لا تكلفه قرشاً لأنه يأخذها من المعمل الذي يعمل فيه...

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

كـــبحت ثـــورة غـــضبها، وتجاهـــل تعبير القرف والغضب في وجهها...

أحس بارتباك فقال: هذا الفازلين أفضل من السابق، إنه نقي و...

قاطعته: لكن ماذا أفعل بكل هذا الغزو الفازليني...

أربكته سخريتها: قال: أعطها لصديقاتك... أو...

نـــأت عنه، فكرت لعله يعتقد أن امرأة على أعتاب الخمسين لا تـــستحق هديـــة، امـــرأة دعته إلى وليمة استثنائية، وهبته جسد معتق بالأشـــواق... لعلـــه يحتقرها بأعماقه كونها ضاجعته بتلك السهولة... لكـــن ألم يكـــن مـــثاراً وسعيداً مثلها، ثم إنه في عمرها... فلِمَ يتكبّر عليها؟!

لم تفهـــم أي رغبة دفعتها لتحضر الكاميرا، كان يتأملها بدهشة، وهـــي تستف قطارميز الفازلين على المائدة، خلف بقايا سمك وصحون مازوات لذيذة أخذت تلتقط صوراً للمائدة...

سألها: ماذا تفعلين؟

قالت: ألتقط صوراً كما ترى!

- لكن ما معنى هذه الصور!!!

- أوف، صـــعب أن أشرح لك، لكن أظن أن بيكاسو لو كان حـــياً لأعطـــاني جائزة ألا ترى أي إبداع بين قطارميز الفازلين ومائدة طعام؟!

- لا، لا أرى أية علاقة بينهما!

ضـــحكت بمرارة... همّت أن تتكلم لكنها آثرت الصمت، كان طعم المرارة في فمها لا يحتمل...

وحـــيدة مـــع جـــيش من قطارميز الفازلين، حائرة، تحس بخيبة ومرارة...

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

لم ترغب بالتفكير، تحس بتعب أشبه بوخز في كل جسدها...

أغمـــضت عينـــيها مستسلمة لتدافع صور عشوائية تنهمر أمام عينها...

مـــرّت ســـنوات عمرها بلحظة... هل أغفت أم كانت تحلم... لكنها حلمت أنها تقطف وردة حمراء رائحتها مُسكرة... وحين قربتها مـــن أنفها لتشمها طفت رائحة فازلين خانقة، تسللت من أنفها وفمها وملأت صدرها خانقة كل شعور يطمح بالفرح...

عطر الحب

قــوبل القرار الذي اتخذته زينب بالاستهجان والاستغراب معاً، لدرجـــة شعرت أنها مطوقة بنظرات أولادها وزوجها الساخطة، لكنها في أعماقهـــا شعرت بشيء من السخرية من استيائهم، فلن تتراجع عن قرارها حتى لو اكتشفوا كذبتها.

اتخذت قراراً بأن تأخذ إجازة من المؤسسة الزوجية لعدة أيام، لم تكن تستطيع أن تقول لهم بصراحة: "اسمعوا، أنا على شفير الانهيار من الإرهـــاق، وأشعر كما لو أنني حمار الطاحون، فمنذ خمسة عشر عاماً أعمـــل علـــى خدمتكم بشكل متواصل... ياه أريد أن أرتاح، أن أفر مـــنكم بضعة أيام كي أرمم نفسي وأشحذ بطاريتي" ما كانوا ليقتنعوا بكلامهـــا، فاضطرت لاختلاق كذبة، بأن زوج أعز صديقات طفولتها قـــد تـــوفي وعليها أن تسافر إليها في بيروت، تحديداً في قريةٍ قريبةٍ من بيروت.

حاكت كذبتها دون أن تهتم بأمر افتضاحها، تحدث زوجها الذي تعـــتقد أن متعـــته الوحيدة في الحياة هي إدانة الناس وتقصي عثراتهم، كانـــت تتخـــيل ببرودٍ نظرته الشامتة وهو يقول لها: "يا سلام المربية الفاضلة تكذب!".

دون أســـف باعت السوار الذهبـــي الوحيد الذي تملكه، والذي قدمـــه لهـــا زوجهـــا يوم عقد القران، سوار مؤلف من حلقاتٍ ثخينةٍ

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

متـــشابكةٍ مع بعضها، فكرت وهي تقبض ثمن السوار، دون أن تشعر بـــذرة ندم، أن حلقات ذلك السوار المتداخلة مع بعضها تشبه سنوات حياتها التي تتلاحق في خدمة أحبائها، شعرت براحةٍ وهي تتخلص من ذلك السوار كأنها تقطع آخر رباط لها مع المؤسسة الزوجية.

لم تكـــن تعرف بيروت إلا من خلال التلفاز، وبمساعدة صديقتها الوحـــيدة في العمل، اتفقت مع سائق تاكسي ليمر بها فجراً لتسافر إلى مديـــنة أهـــم ما فيها أنها لا تعرف فيها أحداً... دلتها صديقتها على عنوان فندق...

لم تصدق أن كذبتها نجحت إلا حين جمعت بعض ثيابها في حقيبةٍ وأولادها متحلقون حولها ينظرون إليها بافتقادٍ وعتاب. ابنها الصغير ما كـــان يـــستطيع أن يغفو إن لم يلامس جسده جسدها، طوّق عنقها، والتصق جسده النحيل بجسدها قائلاً:

"ماما، أول مرة تتركينا...".

قبلت خدّيه بنهم كعادتها، قبلات يسميها أولادها "كاسات هوا" قالت له:

"لن أغيب سوى أيام قليلة وسأشتري لك هدايا كثيرة".

نجحت خطتها بيسرٍ لم تتوقعه، ورغم أن كل شيء مرّ بسلامٍ فإنها شعرت بذعر حقيقي حين انطلقت بها السيارة مبتعدة، شعرت أن قرارها بالـــسفر كان متهوراً وتمنت بحماس أن تنال عقابها لتكفر عن ذنبها بترك أولادهـــا، وكـــي لا تأسرها مشاعر الإثم وتأنيب الضمير تجاه أولادها. ذكـــرت نفـــسها بأنها طبخت لهم سلفاً عن ثلاثة أيام، وغسلت ثيابهم وكوتها، لمّعت الزجاج ومسحت الأرض، فلن يرهقهم أي عمل...

كـــان الطريق إلى بيروت موازياً للبحر، ظلّ نظرها معلقاً بالبحر طوال ساعات السفر، وحين عبرت الحدود غاص قلبها في أسى عميق

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

وهـــي تعي أنها لم تسافر أبداً طوال حياتها، بل زاد في أساها إحساسها أنـــه كـــان يمكن لعمرها أن يمضي على الوتيرة ذاتها لو لم تخترع كذبة لتسافر خارج سجن الحب، عند هذه العبارة همدت أفكارها، أجل، ما الأســـرة سوى سجن الحب؟ مطلوب منها أن تعطي وتعطي وتعطي، محـــرم عليها أن تتعب، يجب أن تكون كالإسفنجة التي تمتص حتى لو اختنقت من السائل.

كانت متكوّمة في مقعدها، تسند جبينها إلى زجاج النافذة، تحبس نفسها في الصمت كما لو أنها في درع، لم ترغب في تبادل الحديث مع الـــركاب مكتفـــية بحوارها الصامت الحميم مع البحر. لم تحدد طبيعة مشاعرها وهي تتعرف للمرة الأولى على طبيعة لبنان الساحرة، أحست أن مـــشاعرها عمـــيقة مختنقة داخلها ومتشابكة لدرجة يصعب عليها تحديد ماهيتها. لم يغادر أطفالها ذهنها لحظة واحدة كانت معهم في كل تحركاتهم، أثناء فطورهم واغتسالهم وذهابهم إلى المدرسة شعرت بغرابة ودهـــشة حقيقيتين وهي تنتبه لأول مرة في حياتها كيف أنها حاضرة في كـــل شـــيء في حياتهم، أصابتها تلك الحقيقة التي داهمتها متكثفة عبر خمـــسة عـــشر عاماً بدوار حقيقي، أغمضت عينيها مستسلمة لدوار العاطفـــة العاصفة التي تربطها بأسرتها، وعَت بكل كيانها المتهالك من الـــتعب أنها صرحُ هذه الأسرة، حجرُ الأساس فيها، وبأنهم لا يكونون إلا بها.

أنهكـــتها انفعالاتهـــا طوال الرحلة، فوصلت إلى الفندق منهكة، بقلـــبٍ ثقيلٍ ومشاعر متضاربة تثقل كاهلها وتجبرها على إحناء كتفيها قلـــيلاً. الغـــرفة مريحة، نظيفة ومن الشرفة يطل بحر بيروت ليزيد من إغوائها بالحرية، أسدلت الستائر الداكنة المضاعفة، واستلقت على سرير هـــروبها، مـــسلمة نفسها للعتمة الرطبة اللطيفة تجردها شيئاً فشيئاً من

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

طـبقات متـراكمة من القلق والتوتر، وصور أولادها التي تخزها دوماً بمـشاعر تأنـيب الـضمير، عاودها إحساسها بذاتها، اكتشفت فكرة أدهـشتها، وتمنت لو تملك الهمة لتقاوم استرخاءها وتسجلها: "الحب أفقدني إحساسي بذاتي" هذا ما أكدته لنفسها وهي تعي كيف أن الأم مجـرد صدى لأولادها تفرح لفرحهم وتحزن لحزنهم، أما هي فتفرغ، تـصير قـربة جوفاء... أجل خمسة عشر عاماً من الحياة في جنة الحب الأسـري فـرغتها تماماً، إنها تشبه بئراً جفت. غرقت في النوم بعكس تـوقعاتها بأنها ستأرق ولن تتمكن من النوم في سرير غير سريرها، لكن حين أيقظها شعور بالجوع أدركت أنها نامت بعمق كما لو أنها ضحية سبات، نظرت في ساعتها، الرابعة والنصف بعد الظهر، اتصلت بعاملة الاستعلامات لتسألها إن كان المطعم لا يزال يقدم وجبة الغذاء.

أجابتها الموظفة بلطف دافئ: أجل.

بدلت ملابسها، كان المطعم في الطابق التاسع، اختارت زاوية مطلة على البحر وتأملت بيروت المسترخية على الشاطئ والمتسربلة بضباب خفيف، تفجرت فجأة حيوية هائلة في روحها، حيوية مختزنة مـنذ سنوات وسنوات. طلبت بيرة وأكلت بشهية، مازحت نفسها بدعابـة: كـم مـرة يا زينب تناولت طعامك دون أن تقومي عن كرسيك مراراً لتلبـي طلبات زوجك وأولادك؟ أسعدها أن تُخدم، تذكـرت أنها وعدتهم أن تتصل بهم لتطمئنهم عن وصولها، كادت تنسى كذبتها، ذكرت نفسها أنها في قريةٍ قرب بيروت لتعزية صديقة بوفاة زوجها.

حين أتاها صوتُ ابنتها البكر أحست أنها ترتد إلى سجن أسرتها، أرادت ابنـتها أن تقحمهـا في تفاصـيل شجارها مع أخيها، حدثت نفسها: "يريدون إشراكي بمشاكلهم حتى لو كنت بعيدة".

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ابـــنها الأكبر طلب رقم صديقتها فراوغت وادعت أن الاتصال صـــعب، أمـــا صغيرها حين حان دوره وانتزع السماعة فقال لها جملة وحيدة: "هيا عودي".

ارتعـــش قلـــبها وهي تعي كم يحتاجها، حاولت أن تطمئنه أنها ستعود قريباً محملة بالهدايا، لكنه قال بحزم: "أريد الماما ولا أريد هدايا".

ابتدأت رحلة الحرية بالتسكع في شارع الحمرا، تتوقف طويلاً عند الـــواجهات مفتتنة بالمعروضات، تقارن بين الأسعار هنا وهناك، وكلما مشت عدة أمتار تستدير للخلف لتذكر نفسها بطريق الفندق. كانت نشوتها عميقة وغامضة في آن وأحست أن جناحين نبتا لها في ظهرها، وأنها خفيفة كفراشة، تنبهت بعد ساعتين من تسكعها أن هناك شيئاً لا يقـــل روعـــة عن الحب وهو الحرية، شعرت كما لو أن روحها أرض مشققة بالجفاف، والحرية أشبه بمطر يملأ تلك الشقوق.

وجـــدت نفسها أمام سينما روكسي، وبدون تردد اشترت بطاقة لتحـــضر فيلم العاصفة ليسرا ممثلتها المفضلة، تذكرت بأسى كيف أنها محـــرومة من السينما في مدينتها الكئيبة، وتمنت لو كان أولادها معها، تأثـــرت بقصة الفيلم، وبتمثيل يسرا المتفجرة بالأحاسيس، لكن بكاءها المتواصل طوال الوقت لم يكن بسبب انفعالها بالفيلم، بل لأشياء كثيرة في حياتها ضاعت في الإهمال وفي زحمة اهتماماتها الأسرية.

خـــرجت مـــن السينما متورمة العينين، مندهشة من عاصفة بكائهـــا، جلست في مقهى رصيف أماً وحيدة بحاجة أن ترمم ذاتها وتحـــاور نفـــسها، طلـــبت كأساً من عصير الجزر، فيما لا تزال تبتلع دمـــوعها للداخل متسائلة عن سر عاصفة بكائها، لكن كم من الأشياء تـــستحق أن تبكي عليها، كم تشعر أنها ضيعت أجمل ما في روحها في سبيل أسرتها؟!

هدأت بعد أن رشفت كوب عصير الجزر البارد الذي أطفأ لهيب روحها.

رغـــبت أن تتمطى بقوةٍ أمام كل الناس، أن تتثاءب بعمق وتقول بصوتٍ عالٍ ياه ما أحلى الحرية، وفي ساعةٍ متأخرةٍ من الليل عادت إلى الفـــندق، قلبت محطات التلفاز بلا مبالاة، استحمّت وهي تغني طوال الوقت مستعيدة تلك الصفة التي كانت تتمتع بها أيام العزوبية، لم ترتد ملابـــسها في الحمـــام كعادتها، بل خرجت إلى الغرفة تحيط جسدها بمنشفة، أسقطت المنشفة أرضاً وتفرجت على جسمها في المرآة الكبيرة للمـــدخل، صدمها عُريها، ورغم أنها لا تزال محتفظة برشاقتها إلا أنها أحـــست بحـــزن عظيم وهي تتأمل نهديها، أمسكت نسيجهما الرخو، عصرتهما براحتيها، يا لطعم المرارة الذي تشعره، وهي تتذكر كم كانا شـــامخين ومتينين، تذكرت سنوات زواجها الأولى التي قضتها مسممة بالغـــيظ بسبب تحولات جسدها المنتفخ بالحمل والمترهل بعد الولادة، واحتقان ثدييها المؤلم بالحليب، ثم تهدلهما وارتخائهما.

كـــان زوجها يضاعف غيظها، لأن لاشيء تبدل في جسده بعد الزواج، إن الطبيعة ظالمة حقاً ومنحازة للذكور.

أفاقت في ساعة متأخرة من صباح اليوم التالي، طلبت الفطور إلى غـــرفتها وتناولت قهوتها على الشرفة متأملة الناس في سعيهم الدؤوب، فكرت أن البشر يتشابهون في كل مكان، كانت تتذوق مع قهوتها طعم الحرية، شعرت أنها ستعيش حالة سمتها "فتنة الحرية".

مـــرّ أطفالهـــا بمخيلـــتها غارقين في الضباب، حيّتهم بحب لكنها رجـــتهم أن يتـــركوها مستمتعة بوحدتها، تنبهت لمتعة الصمت حيث يمكـــنها أن تـــسمع صوت أعماقها حاولت أن تفحص مشاعرها تجاه زوجهـــا، عجزت، لتعترف أنها لم تشتق له وبأنها لم تعد تحبه، ما بالها

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

مـــرتبكة هكـــذا؟ فهو لن يتمكن من محاسبتها على أفكارها تذكرت بمرارةٍ كيف تهبه جسدها كحق له، كما لو أنها مدينة له بتلك الممارسة الفارغة... لولا الأولاد لهجرته...

تنبهت لنظرات نـــزيلٍ في الفندق تراقبها، كان يدخن الغليون في الـــشرفة، ورغم نظارته الشمسية السوداء فإنها شعرت أن نظراته مثبتة علـــيها، تذكرت أنها التقته مساء البارحة عند باب المصعد وبأنه حياها بإيمـــاءةٍ مـــن رأسه، قدرت أنه على أعتاب الخمسين، وأسعدها أنها لا تزال قادرة على إدارة الرؤوس إعجاباً، وجدت أنها تفكر به في تسكعها الجميل بعد الغداء كاحتمال غواية... استعادت بذاكرتها لقطات بعيدة لـــرحلات صيدٍ كان زوجها يقوم بها مع رفاقه تستمر ليومين أو ثلاثة أيام، ترى هل كانت رحلات صيد؟ أكانوا يلاحقون الخنازير والطيور أم النساء؟!

وإلا مـــا معنى الأحاديث الغامضة والتعليقات الجنسية والغمزات المبطّنة التي كان الأصدقاء يتبادلونها، إنها واثقة أنه يخونها، وقد ساعدتها الـــصدف أن تكتـــشف أكاذيب كثيرة لفقها أمامها، لكنها لم تشأ أن تـــواجه تلك الحقيقة لعجزها عن تخيل انهيار أسرتها، إنها تعبدُ أولادها، ومستعدة أن تتحمل كل طعنات الألم في سبيلهم.

اشـــترت فـــستاناً أنيقاً يجمع بين اللونين الأحمر والأبيض، ارتدته وأفردت شعرها الطويل الذي تعقصه دوماً في خصلة ثخينة تنسدل حتى منتـــصف ظهرها، قررت أن تحضر مسرحية، تذكرت أنها منذ عشرين عامـــاً لم تحـــضر مسرحية، اشترت دخاناً خفيف النيكوتين رغم أنها لا تـــدخن، لكن بدا لها نفث سيجارة من مستلزمات ديكورات الحرية، لم تـــبكِ ذلك المساء في المسرح، بل استمتعت تماماً، وحين تسلمت مفتاح غرفتها من عاملة الاستقبال، أحسّت بشيءٍ يحرقها بين كتفيها استدارت

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

لـــتجده يحدقُ بها، لم يكن وجهه يعكسُ عاطفة أو انفعالاً، لكنها قرأت رغبة عميقة في عينيه بأن يكون قربها ويحدثها، تجاهلته واتجهت بخطوات ثابـــتة نحـــو المصعد، وحين رمت فستانها جانباً وأشعلت سيجارة لتنفث دخانهـــا بتلذذٍ فكرت: ما الذي يمنعها حقاً من خوض التجربة مع رجل آخـــر غير زوجها، ورغم أنها أرادت أن تستفظع الفكرة وتزجر نفسها، إلا أن الخطيـــئة بدت لها فاتنة حقاً، لِمَ لا تجرب رجلاً آخر غير زوجها؟ ألا يحق لها أن تخونه مرة واحدة مقابل خياناته الكثيرة لها؟

ولماذا يُنظر لخيانة المرأة كجريمة، أما خيانة الرجل فيجدون لها مئة مـــبرر... فتحت البراد وأخرجت زجاجة بيرة، شربتها مستمتعة بذلك الاســـترخاء اللذيـــذ الذي يولده الكحول في أطرافها، تساءلت: هل تستحق الحياة أن تؤخذ بكل تلك الجدية؟

عـــادت للفكرة المتحدية التي تحاصرها "ما الذي يمنعها من خيانة زوجها؟" الخيانة تكون لرجل تحبه، أما هي فلم تعد تحب زوجها، لكن كيف تخون مع رجلٍ غريب لا تعرف عنه شيئاً؟ وجدت نفسها تفكر به قبل أن تغفو، بل أسعدها أنه رآها بأجمل صورها...

صباح اليوم الثالث لرحلة حريتها، تعارفا، قدّم لها نفسه ببساطة، وجدت نفسها ترحب به ليتناولا الإفطار معاً، ارتاحت للتحدث إليه في مدينة الغرباء، أسعدها أنه لم يسألها أي سؤال شخصي، فحذت حذوه، لم تمانـــع حين دعاها لمرافقته لزيارة متحف جبران خليل جبران قرب إهدن، جلست بجانبه في السيارة الفخمة وصوت مطرب يوناني يفجّر فـــيها أحاســـيس غـــير متوقعة، اكتشفت أن هذا الغريب يحرك فيها أحاســـيس اعـــتقدت أنهـــا ماتت وبدأت جاذبية خجولة تنمو بينهما يتجاهلانها بقسوة نسيت أسرتها تماماً، كأن دهراً يفصلها عن أحبائها، وتآلفت مع الغريب لدرجةٍ شعرت أنها تعرفه منذ دهر...

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

كانـــت مبهورة بالطريق الجبلي الساحر، برسوم جبران وروحها الـــتي تطوف في المكان، تناولا عشاءً خفيفاً في مطعم يقدم مأكولات بحـــرية، وحين دخلت غرفتها كانت منهكة من سعادة مباغتة وغريبة، تذكرت أنها لم تتصل بأولادها لتطمئن عليهم، لكنها لم تشعر بالتقصير، فليتـــركوها تـــستمتع بحريتها مع الغريب، كانت تعرفُ أن خيالات عاطفـــية رقيقة تجول بذهنيهما وأنهما سيستسلمان للنوم على أمل أن يتلامسا في اليوم التالي، لكن أول شيء فعلته حين استيقظت أن اتصلت بأولادهـــا تبلـــبلت من القلق حين أخبروها أن الصغير استيقظ وحنكه مـــتورم بـــشدة، إنه النكاف كما شخّص له الطبيب، وهو يعاني من حـــرارة... بلحظة كانت قد جمعت ثيابها في الحقيبة، دفعت الحساب لعاملة الاستقبال، ورجت سائق التاكسي أن يسرع إلى محطة الباصات، كانـــت دمـــوعها تنهمر كاوية، تمسحها بظهر يدها... دفعت للسائق أجـــرة راكبين ورجته أن يسرع، سخرت من أيام السخرية التي قضتها في بيروت أحست أنها تكسو نفسها بثوب مخادع، كان حبها لصغيرها طـــول طـــريق العودة يسيطر عليها ويغمرها بنشوة تذهب بعقلها، مرّ بذهـــنها الغريب يتناول إفطاره وحيداً ينتظرها، ابتسمت باستخفاف للأفكـــار العابرة والغريبة عن جوهر كيانها والتي مرت بذهنها البارحة، إن جوهر كيانها أم...

كانـــت يداها المحيطتان بحقيبة يدها ترتجفان من الانفعال، فكرت بأنهـــا لن تعطي جسدها لرجل آخر لتحافظ على نقاء روحها وجسدها مـــن أجل أطفالها، وليس لأجل زوجها، إنها تعي تماماً كيف أن لا طعم لحـــياتها دونهـــم، وأن تعـــبها الطويل في سبيلهم هو الذي يغني روحها ويجعلها صامدة ومطلقة وعظيمة، صار نفاذ الصبر يلسعها، غاية ما تريده أن تضم الصغير المريض إلى حضنها، ستقبله قبلاتها "كاسات الهوا".

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

محـــاذرة أن تسبب له الألم، ستدلله وتحضر له المأكولات الخفيفة، وحلـــوى الـــزبيب واللوز التي يُحبها، كم تتمنى أن تسهر بجانبه طوال اللـــيل منـــصتة لإيقاع تنفسه، وأن يمد يده وهو نائم باحثاً عنها بقلقٍ، ليستكن ويتابع نومه حين يلمسها...

أيـــة حـــرية مخادعة أرادت أن تعيشها؟ كم تشعر بذلك اللهب المـــتأجج من عينيها تشعر به دون أن تراه، لهب الحب، لا يوجد أروع مـــن أن يعـــيش الإنسان لهب الحب... صارت أنفاسها تتخذ إيقاعاً حماســـياً، فجـــأة غـــزت أنفها رائحة عطر ساحر التفتت تبحث عن مصدره، سألت السائق والركاب عن مصدر تلك الرائحة الذكية أبدوا دهـــشتهم، واضـــح أن أياً منهم لم يشم تلك الرائحة، ابتسمت وهي تغمض عينيها متشنجة من السعادة، إنه عطر الحب.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

الصغير ينام في سرير إعاقته

لقد أهديتني إعاقتك كي تحميني من أكبر رذيلة الكبرياء.

وحين أمشي كالطاووس، نافشة رياش أفكاري الثورية، يعبر خيالي طيف جسدك الشبحي الناحل، بمشيتك العرجاء المُتعبة، فألملم نفسي وأمشي باتضاع.

حين أجلس متخمة بإحساسي بذاتي، أبالغ في إرضاء نفسي، منتشية بتدخين الأركيلة وشرب كأس البيرة المثلجة وأكل المازوات اللذيذة، متفننة في تفصيل أثواب مبتكرة لأفكاري كي أنتزع الإعجاب، تطن أذناي بصوتك الحاد أحياناً والواهن أحيان أخرى، صوت عارٍ من أي زينة، صوت نقي كصوت الريح أو الشلال، صوت صامت كالدمع، يُعيدني صوتك إلى الكلمة الأولى: الحق.

وحين أرسم الخطط للانتقام من أعدائي، ويلتمع وهج الشر في عيني، لأني أدرك بغرور أني سأنتصر وسأسحقهم، ينحرني خيالك المريض ويصفعني بحقيقتي البشعة، كيف أترك نفسي أنقاد للأحقاد... أفكر أنك تتفوق علي بإعاقتك التي تحميك من سموم الحقد والكره... طيفك البعيد، يجعل أحقادي تترسب في قاع روحي كطبقة من غبار أغسلها بدموعي النادمة التي وحدك تفجّرها من عيني...

وحين يحملني طموحي بعيداً بعيداً، جاعلاً لي جناحان عملاقان يطيران بي إلى ذرى هوى الشهرة والنجاح والتألق، أتذكرك فجأة،

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

فأعـــود لحجمـــي البشري. ويلقنني مرضك الأبدي أن نسيج جسدي سريع العطب، وأننا من التراب وإلى التراب نعود...

إعاقتك يا صغيري الحبيب هدية تقدمها لنا نحن الأصحاء المقززون بأنانيتنا...

نحن الأصحاء الذين نخجل منك، فنواريك عن أنظار الناس، لأن الأطفـــال بالنسبة لنا للتباهي، امتداد لأنانا المتغطرس: ابني جميل مثلي، ذكـــي مثلـــي، خفـــيف الظل مثلي، أما حين يكون معاقاً فأسجنه في إعاقـــته... لكـــنك لا تـــبالي بخجلنا منك لأن إعاقتك علمتك نعمة التـــسامح، حـــتى حـــين نشتمك، وتمر بذهننا أفكار قاسية عن رغبتنا باختفائك التام من حياتنا، لا تتأثر ولا تحزن، تظل تنظر لنا بحب منتظراً فُتات شفقتنا لنطعمك، ونهدهد أوجاع روحك وجسدك كي تغفو...

فطوري لذيذ... فطورك مسموم بالأدوية مذ كنتَ رضيعاً...

وأنـــا أعبر الشارع، وأنا أعبر أيامي وسنوات عمري معتقدة أني أحقـــق إنجازات أتخيلك تعبر الحياة كنسمة بالغة العذوبة والرقة لدرجة تخشى أن تقلق راحة أوراق زهرة!

لـــن تذهب إلى المدرسة، ولن تترفع من صف إلى صف... ولن يكـــون لك أصدقاء دراسة، ولن تمارس الرياضة، ولن تتذوق الفن... ستبقى أشبه بالمادة الخام التي نسي الصانع بردختها وتطويعها، لكنك في كـــل لحظـــة تذكرنا أننا صُنعنا من هذه المادة ذاتها التي شكلت نسيج الحـــياة، فتذكـــرنا بماهية جسدنا وروحنا وتلعب دور ملاكنا الحارس الذي يقينا من غواية عشق الذات.

لا تبـــصر عيناك الجميلتان إلا القليل القليل، غارق في ضباب عيناك وروحك وعقلك، لكن من قلب هذا الضباب، أتأملك كيف تمد رقبتك النحيلة، مرهفاً سمعك نحو جهة ما غامضة، محركاً عيناك

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

في كـــل الاتجاهـــات، فـــأدرك أنك وحدك من يرى الحقيقة وسط الضباب...

سننجح في إبعادك رويداً رويداً عن دائرة حياتنا... وأنت ستنجح ومن دون أن تعاتبنا، لأنك لا تعرف ما العتب، ومن دون أن تكرهنا، لأنك لا تعرف الكره ومن دون أن تغضب، لأنك لا تعرف الغضب... ستنجح أن تعوّد نفسك كيف تغفو في سرير إعاقتك الأكثر رحمة من سرير الأصحاء.

الصياد

غاليتي منال:

أتساءل لو كنتِ هنا، هل كنتُ لأتجرأ وأُسقط الستارة أمامك لأريك مسرح أفكاري وأحاسيسي، التي احتجتُ - أنا نفسي - لفترة طويلة كي أملك شجاعة مواجهتها؟

وكثيراً ما يبدو لي أن مواجهة الإنسان غيره أسهل عليه بكثير من مواجهة نفسه بصدق ونزاهة.

منال الغالية: أنتِ صديقة حميمة رغم سنوات الغربة التي تبعدنا عن بعض، لكن تلك الغربة تحديداً وعملك في مجلة نسائية شهيرة شجعتاني أن أكتب لك خاصة أنك رئيسة تحرير صفحة بريد القراء، وصفحة - عندي مشكلة - كم تعجبني حلولك للمشاكل يا منال فأنت لا تقدمين حلاً واضحاً كما لو أنه وصفة جاهزة، بل تكتفين بتحليل أسباب المشكلة وكشف دوافع سلوك شخوصها، عنده يشعر القارئ من تلقاء نفسه أنه اهتدى إلى الحل، كنتُ أعتقد يا منال أن المشكلة وأفضل استعمال كلمة حالة التي سأرسلها لك خاصة، لكني فوجئت أن هنالك مئات الحالات المشابهة. لا شيء أروع من البوح الصادق بين الناس، إذاً لم أكن حالة خاصة ومع الزمن اكتشف يوماً بعد يوم أن كل ما نعتبره خاصاً ولا يحدث إلا معنا هو شائع ومشترك بين الناس.

www.ibtesama.com
تنسيق:علامة تعجب

تستحضرني ذكرى بعيدة يا منال، ذكرى تترك في نفسي الآن عكس الانطباع الذي تركته وقتها، غريب أمر الذاكرة، إنها تعيد تركيب الحدث وتغيّر الإحساس به، أعود لدفتر مذكراتي وأقرأ ما كتبته منذ سنوات في وصف تلك القبلة السحرية: كنتُ بحالة انخطاف مستسلمة لذلك العناق الذي أحسسته يرفعني شيئاً فشيئاً إلى السماء منتشية بأنفاسه الدافئة التي تلفح وجهي، وشفتاه اللتان لا تعطياني فترة للراحة... الخ) لا أستطيع أن أكمل هذا الهراء يا منال، لأني أحس بالاشمئزاز والقرف - الآن - كلما استعدتُ بذاكرتي تلك القبلة.

لماذا نكتب إذاً، إذا كانت الذاكرة تُعيد إنتاج ما نكتبه حسب هواها؟ هل يجب أن نكتب كي لا نضيع؟ أقول لنفسي هذا الخط خطي، وأنا من كتب هذه السطور، أحس كمن يصفعني، أبعد الدفتر عني، أرغب بتمزيقه، لكني أعدل عن رغبتي، إذ أحس أني لا أملك الحق في الاعتداء على تلك الإنسانة التي كُنتها.

هل تذكرين تلك السهرة يا منال، كلٌّ منا لفقت كذبة محكمة قدّمتها للسلطة العليا - الأهل - كي نتمكن من السهر مع الحبيب، في تلك الليلة كان كل شيء ساحر وحين أستعيدها أشعر أني أستعيد حلماً، ضوء القمر البدر، وأمواج البحر اللطيفة التي تغازل رمل الشاطئ الناعم مصدرة حفيفاً كحفيف القبلات، والبدايات الجميلة لقصص الحب، لمعان العيون، اللمسات الخاطفة، والأحلام التي تحف برؤوسنا كسرب فراشات ملونة.

كم يحزنني يا منال أننا رغم صداقتنا ما كنا نجرؤ أن نبوح لبعضنا بأسرارنا، أذكر أني اتصلتُ بك ودعوتك للعشاء مع صديق، قبلتِ للحال واستأذنتني أن يصحبكِ صديق لك.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

صـــديق! كلمـــة مطاطة ضبابية تنفي الشبهات والتهم. ترى لم الـــتحفظ؟ مِمَّ نخاف؟ لا أظنه خوفاً لكنه إحساس عميق بالإثم، كوننا نعـــيش علاقة غير شرعية، هذا الإثم اللعين الذي يظل ينخر في نفوسنا كما ينخر الدود في الخشب ويفسد علينا أية بهجة.

لماذا ينتابني كل هذا الغثيان والقرف حين استعيد تلك الذكريات التي تخص علاقتي به؟ الرجل الذي كان اسمه الحبيب!! يحررني الزمن من الأوهام، فأستطيع أن أرى نفسي بوضوح كيف كنتُ، أجل يا منال، وأنـــتِ تعرفين، كنت في قمة إحباطي وقد ضاع حلمي بالسفر رغم مـــؤهلاتي العلمية وحصولي على شهادة الهندسة المعمارية بتقدير جيد جداً. فضلوا عليَّ أخرى، مدعومة، ولديها واسطة لا يمكن ردّها، كم أصـــابتني تلك الحادثة بالأذى والقهر، زاد من إحباطي المهني، إحباطي العاطفـــي أيضاً، كنتُ أجر ذيول فشل ثلاث خطبات متلاحقة، حتى آمنتُ أن كل عريس يتقدم لي سأفشل معه لأني منحوسة.

كنتُ وقتها بحالة مثالية لأرتمي بأي حضن، لأبكي على كتف أي رجل، كنتُ أحتاج للاستسلام لعناق غامض، وهو عرفني وأنا في أوج أزماتي وإحساسي باليأس والتخلي.

مـــا كان بإمكاني أبداً أن أفهم وقتها كم هو صيّاد. رجل بخبرته الواســـعة في الحـــياة والنـــساء، قرأ بسهولة الحاجة والضياع في عينيّ، أتذكـــرين الطقوس المسرحية التي قام بها في السهرة: يقطف لي وردة، ويغرســـها بعـــناية في شعري، متعمداً أن تلامس أصابعه رقبتي برقة، مكهـــرباً جلدي بالرغبة، ثم ارتجاله لشعر لطيف مستوحى من وجهي والقمـــر الـــبدر، مقارناً بينهما، مُفضلاً قمري! وأخيراً كيف نـــزع قميـــصه متباهياً بجدعه الممشوق البرونـــزي، وكيف أخذ يرش رذاذ الموج على صدره وكتفيه.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

لقـــد فتنني حقاً، لدرجة انتشيتُ بصوته النشاز وهو يغني لفيروز، هذا العاشق بامتياز هو صيّاد لا يخطئ هدفه، أكثر ما فتنتني عفويته التي أدرك الآن كم كانت مدروسة لدرجة تبدو طازجة وحقيقية، أكثر ما تفتـــنني العفوية، لأنهم في هذا البلد يعتبرون قتل العفوية هو ذاته العملية التـــربوية، العفـــوية بطانة الإبداع والخلق، لذلك اعتبرتُ هذا الرجل مبدعاً، فناناً في العشق والحياة.

أتخـــيلّ نظـــرة الاحتجاج في عينيك الذكيتين، ستقولين لي: لكنه أحبك كثيراً، وبأنك كنتِ شاهدة على حبه لي، قد يكون أحبني، لكنه حـــب الـــصياد لفريسته، ربما الرجل العربـــي لا يستطيع أن يحب إلا بعقلـــية الغازي، فما أن يميل إلى امرأة أو يبدأ بحبها، حتى يسيطر على تفكـــيره هاجس وحيد: متى سأحصل عليها؟ متى سأضاجعها؟ كيف سأســـيطر عليها، وأضعها في قلبـــي مغلقاً عليها سجن أضلاعي، لأنه يـــشعر في أعماقه – وربما عن غير وعي منه – أن كل ما يناله من هذه المـــرأة مكـــسبٌ وامتياز، أما المرأة فتشعر حين تفشل علاقتها مع من تُحـــب – مهمـــا كانت الأسباب – أنها خسرت وأُهينت، وانخفضت أسهمها في سوق الزواج! لماذا لا يحس الرجل والمرأة بالندية؟ ابحثي في الأسباب الحقيقية والعميقة يا منال فهذا مجال عملك واختصاصك.

أعـــود لـــتلك السهرة يا صديقتي، تلك السهرة الساحرة التي انـــتهت فجراً، كنا بحالة نصف صحو، نصف نوم، منتشين بالقمر والنبـــيذ والغزل، ورغم حالة النعاس والتعب الشديد اللذين كنتُ بهمـــا، فإنـــه أصرّ وهو يوصلني إلى البيت أن نتبادل قبلات حارة، إصرِاره لم

يكـــن لرغبته الشديدة بـــي، بل لأنه وضع برنامجاً للعلاقة، وبأن هـــذه الـــسهرة يجب أن تتمخض عن إنجاز مهم: القبلات. وفي الأيام

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

التالـــية ســـيكون الـــبرنامج مختلفاً، سيغزو بقوة أكبر وعزم لا يخطئ، ويحصل علي تحت شعار براق ولا شيء يفوقه خداعاً: الحب.

هذا ما حصل تماماً يا منال، أفكر الآن وطعم المرارة طاغ في فمي وروحي لِمَ استسلمتُ له بسهولة؟ يا لإحساس المهانة ما أصعبه، بدوت مـــسلوبة الإرادة تماماً، مشلولة، عقلي مسترخ كأنه تحت تأثير مخدّر، دعـــاني للغـــداء في الشاليه، رفضت، فأصر مؤكداً لي أنه لن يقوم بأي تصرف إلا بموافقتي، تأكيده هذا أشعرني أني متخلفة وامرأة غير عصرية إذ تنظر للرجل كذئب يريد افتراسها، لبيتُ الدعوة وأنا أوهم نفسي أنه يستحيل أن استسلم له وأنا لا أعرفه إلا منذ أيام. لكن ديكورات الغرام كانـــت مثالية، الستائر الوردية المسدلة على النوافذ، الموسيقى الناعمة الرومانـــسية، النبـــيذ الفاخر، واللوز المنقوع بالثلج والذي يعرف كم أحـــبه، كان يقشر لي لوزة بعد لوزة ويضعها في فمي لتلامس أصابعه شـــفتي، فيداعبهما، إصراره أن يرشف النبيذ من شفتي المبللتين بسائل الغـــواية... ما كنتُ متأكدة منه أني لستُ راغبة بممارسة الجنس معه، لكـــني كنتُ في فخ الغواية القسرية، إن كان يمكنني ابتداع هذا التعبير. كنا في غرفة وحيدة حيث سرير عريض أنيق ينتظرنا كوحش يفغر فاه لابتلاعنا.

أحـــياناً أفكر لو أن الشاليه كانت مؤلفة من غرفتين أما كنتُ نجـــوتُ من هذا الوصال؟ لكن السرير الفارغ كان كنداء وحشي وعويل عميق لغرائزي التي طال قمعها حتى كادت تمترئ، ميزة هذا الـــرجل أنه يُتقن الصبر ويوحي لمن معه أنه غير مستعجل، وأنه لا يبيّت أية نية مسبقة، لكنه في الوقت ذاته يعطيني إحساساً مؤكداً، لا أعرف من أين يغزوني أن وصالنا حاصل لا محالة. كيف يتقن تلك المعادلـــة، لا أعرف؟ وهكذا وجدتُ نفسي من دون أية قناعة مني

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ودون أن يطلـــب مباشرة عارية بين ذراعيه على السرير العريض، كـــنتُ أشعر كأنه نوّمني مغناطيسياً، وكان من الصعب علي الفرار من هذا الاحتمال.

بعـــد تلك الممارسة المُنهكة والتي حاول من خلالها استعراض كل فـــنون الجنس التي يعرفها، والتي يريد أن يزودني بها كما لو أنه يعطيني درســـاً خاصاً. بعد ذلك الوصال كان يمكن أن ابتعد لأرتب أفكاري المشوشة ومشاعري الأكثر تشوشاً، لأفهم أين أنا من هذه العلاقة؟ ومن هـــذا الرجل؟ وما الذي حدث بيننا؟ لأفهم كيف بقيت عارية ساعتين فوق سرير عريض دون قناعة فعلية مني!! كنت أحتاج أن أعرف كيف انـــوجد هـــذا الرجل فجأة في قلب حياتي؟ لا يترك لي مجالاً للتنفس، أحـــسه تحت جلدي مشوشاً أفكاري كما لو أن صوت مذياع رديء يستمر بالتشويش في أذني، كان عارفاً بخبرته كصيّاد أنه يجب أن يُحكم الخـــناق علـــيّ لأن قبضته لو ارتخت قليلاً حول عنقي فسأفر منه بكل طـــاقتي علـــى الهروب. إذ أنه عكس مبادئي أن أقيم علاقة مع رجل متزوج.

المشكلة الجوهرية يا منال أن المجتمع، وكما يجبرك على طريقة في العيش والسلوك فإنه يجبرك على ما هو أخطر - الإحساس - إنه يلقننا أحاسيـــسنا ويعلمنا كيف يجب أن نشعر في كل موقف نتعرض له. لذا فقـــد أحســـستُ بانكـــسار كبير حين استسلمتُ له، كأنه بعد ذلك الوصال قد كسرني واستولى على سوري المنيع، شعرتُ أنه اقتحم قلعة شـــرفي واحـــتلّها وصار سيداً، عرف حميمية جسدي فامتلكني، بمعنى انتـــصر علـــيّ، إنـــه الآن رجلي وله الحق عليّ، فقد صرتُ خاصته وملكيـــته، ياه يا منال كم أحس بفظاعة هذه الأفكار، لماذا أحسستُ هكـــذا؟ كان بإمكاني الابتعاد، تجربة حدثت رغماً عني وكفى... من

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

جعلـــني أحسّ هكذا؟ كيف يتسللون إلى أعماق عصبونات إحساسنا فيجبروننا أن نحس كما يفترض بأنثى أن تحس في هذا الشرق العربـــي التعيس.

المـــضحك أنـــه رغم شهادتي العلمية العالية وتفوقي فقد أقفلتُ محـــاكمتي العقلـــية واستسهلتُ الاستسلام لدوامة الحب المخادع، ربما استمريت بعلاقتي معه لخوفي من ألا يكون لدي علاقة، فقد كنا كذلك مـــن جـــيل الثورة الجنسية الذي يعتبر أن الكبت وعدم عيش أية خبرة جنـــسية عقدة نفسية خطيرة! كنا مضللين بتلك الأفكار المخادعة التي تجـــبرنا على عيش علاقات جنسية وعاطفية مشوهة وبالسر تماماً كي نثـــبت لنفـــسنا أننا غير معقدّين!! جعلني استسلامي لعيش علاقة معه أدرك الـــدور الرهيب الذي يلعبه الكبت الجنسي في حياتنا، وهو كان عارفاً تلك الناحية الحساسة، فكان الجنس تمثيلية متقنة يقوم بها ليهيمن عليّ، ويفتنني معتمداً على قلة خبرتي إن لم أقل انعدامها، وعلى الكبت الطـــويل الطويل الذي أوهن أعصابـــي وجعلني أعيش حالة أقرب لما تكون تزاوجاً بين اللامبالاة واليأس.

"خـــيمة أطبقت عليّ" هذا شعوري دوماً يا منال وأنا معه، شيء انقض علي فجأة وما عاد بالإمكان الفكاك منه وكلما حاولت التململ والإفلات من أخطبوط تلك العلاقة أسرع يطبق علي مسخفاً أفكاري ومتهماً إياي بالرجعية.

تعاسته الزوجية هي الوتر الذي يعزف عليه، لكنه لن يطلّق زوجته إكـــراماً لأولاده. اســـطوانة ممجـــوجة يـــستعملها المتزوجون ليبرروا خياناتهم، لكني تمكنتُ بعد أشهر من شحذ قواي والصراخ بكل طاقة كـــياني الذي يضجّ بالرفض له: لا أريد الاستمرار في هذه العلاقة، لا أريد أن أعيش علاقة مع متزوج.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

هـــل تصدقيني يا منال لو قلتُ لك أنني أحسستُ بالانهيار وأنا أبعـــده عني، فقد صارت علاقتي معه أشبه بلعبة ليّ الذراع، من يلوي ذراع شريكه؟ ما كان يسمح لي بتركه، يقول أن هذا ليس من حقي؟! مـــضخماً لي روعة الحب العظيم بيننا وخسارتنا الفادحة لو خسرناه!! وفي كل مرة كنتُ أصرّ على قطع تلك العلاقة، كان يداهمني بأسلحته الهجومـــية، يحتضنني بقوة كما لو أنه يريد تكسير أضلاعي - ورأسي أيـــضاً - يفترسني بقبلاته، ويحاول رغماً عني أن ينـــزع عني ثيابـــي، مفـــسراً ممـــانعتي بأنها دلال وخجل!! فأخرج من هذا العراك لا هثة، منفوشـــة الـــشعر، مبلبلة الأحاسيس، كم كنتُ بلهاء ومضللة، كنتُ أحـــاول تفسير ما يحدث بأنه شدة حبه لي ورغبته لي، و لم يخطر لي أنه محاولة اغتصاب!.

أخـــيراً فـــررتُ، ابتسم لي الحظ وسافرت في بعثة إلى لندن لمدة عـــامين ورغـــم إصـــراري ألا يعرف عنواني، إلا أنه تمكن بالحيلة من الحـــصول علـــيه عن طريق صديقة لي. وبدأت رسائله تنهال علي عبر الانتـــرنيت. في البداية كنتُ أرد بدافع المجاملة وحاولت أن أجد فيها نـــوعاً من العزاء في غربتي القاسية، ثم كففتُ عن الرد لأنه بدأ يعزف علـــى وتر الحب الضائع. هجوم رسائله لم يكن دليل حب، بل رغبة جامحة بامتلاكي، بإشعاري كل يوم أنه له حق علي لأنه ضاجعني ذات يـــوم!!..... يـــا للعقلية المتخلفة والمقرفة لمعظم رجالنا. المهم يا منال فُوجئتُ أني صرتُ أخافه أزعجني جداً هذا الإحساس، وكنت أحاول أن أفكر بهدوء وبمنطق عقلاني لأعرف سبب خوفي منه لكني لم أتوصل لأي تفـــسير... أظنه الخوف الخام والمبهم المتوارث عبر أجيال والذي تحـــسه المـــرأة تجاه الرجل، فالرجل سيد ومتسلط، غير مؤطر بثالوث الـــرعب: السمعة، العفة، العذرية. والأنثى هي الأضعف، هي الأشبه

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

بالـــزجاج الرقيق والذي إذا كُسر لا يمكن إصلاحه ورُمي في القمامة، هكـــذا يقدمونـــنا للحياة، يفصلّون لنا الشخصيات التي سنلبسها كما نلبس ثيابنا.

حـــين عُدت إلى الوطن كان أول من هجم ليقول لي: الحمد لله على السلامة، وحين امتدت يده ليصافحني، ضغطت أصابعه بقوة هائلة علـــى أصـــابعي كأنه يريد أن يذكرني أنه ضاجعني ذات يوم، عصف بـــــي غضب هائل وغثيان فظيع، لكني تجاهلتُ مصافحته وسألته عن زوجـــته وأولاده، لا أعـــرف لماذا يحس بغيظ شديد كلما سألته عن زوجـــته، من حسن الحظ أنه انتقل ليعيش في مدينة أخرى، لكنه صار يباغـــتني باتصاله بـــي في أوقات متباعدة، و لم يعد يلّمح لما كان بيننا، ولا يطلـــب لقائي، كل غايته أن يطمئن علي ويشم أخباري بفضول يعجز عن مداراته، وفي كل مرة يسألني: ألا يوجد رجل في حياتك؟!

وكم كنتُ أود لو أصرخ به: لا يحق لك أن تسأل هذا السؤال. لكني كنتُ أكبح احتجاجي.

إلى أن صرخت به ذات يوم: لا يحق لك أن تسأل هذا السؤال.

فقال بثقة المالك: كيف! أنا من يحق لي أن أسألك ما أشاء.

كلامه يعني تحديداً: بما أنني ضاجعتك ذات يوم، فأنا لي الحق بك مدى الحياة!! وليس لك أية خصوصية تخفيها عني!!.

هـــل أضجرتك يا منال؟ لكن لدي إحساس عميق أنك تفهميني بمحبتك وذكائك حتى آخر كلمة سأقولها، المهم يا غاليتي، صار يزورني في أوقات متباعدة بحجة أنه في مدينتي لا نشغاله ببعض الأمور! وفي كل مـــرة كـــان يدخل مكتبـــي بالطريقة الغازية ذاتها وكنا نتبادل قبلات الأصـــدقاء كعادة المثقفين مدّعي التحرر، لكنه في كل مرة كان يتعمد بطريقة تبدو عفوية أن تلامس شفتاه طرف فمي، ثم كان يشحذ عينيه

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

بكـــل شـــهوته الـــزنخة متعمداً أن يذكرني بأكثر اللحظات حميمية في وصالنا... كنتُ أبذل جهداً خرافياً كي أبدو لا أفهم شيئاً وأظل على تعاملي البارد والمهذب معه، منتظرة رحيله.

لكـــن أي جـــرعة لطـــف زائدة مني كان يقتنصها فيسألني: ألم تشتاقي لي؟! فأرد مُجاملة: أجل.

فيتشجع ويقول: والله أنت مجرمة، قضيت على أحلى قصة حب بين أروع عاشقين. فأرد باقتضاب متحاشية أن ألتقي بنظراته التي تنـــز شهوة: الموضوع انتهى منذ سنوات، ولا داعي للتحدث به.

- لا، لم ينته، لماذا تقاومين رغباتك، لم يدخل رجل إلى حياتك، ثم أنت لا تزالين مغرمة بـــي.

أبحلـــق به بذهول، وأعجز عن الرد أمام صلفه وغروره الغبـــي، فيتـــشجع ويمـــد يده ليلامس نهدي، فانتفض وأصرخ: ما هذا؟ كيف تجرؤ؟!.

ينظر إلي مبتسماً كأنه يذكرني أنه طالما لمس جسدي.

هذا الرجل الذي أظنه نموذجاً لرجل شرقي، يعتقد أنه يملك الحق علي لمجرد أني عشتُ معه ذات يوم علاقة.

رجـــوته ألا يـــزورني في مكتبـــــي، وأن يعفـــيني من اتصالاته للاطمئنان علي لكنه فاجأني باتصاله ذات مساء، ومن صوته أحسستُ أنـــه مشتعل بالرغبة، قال لي بلا مقدمات: اسمعي أنا لا أزال أشتهيك كما لو أنك الأنثى الوحيدة على سطح الأرض، رغم أنك لا تستحقين ذلـــك!!... تصوري يا منال كان اشتهاؤه لي امتيازاً لي!! تابع كلامه: وبمـــا أنـــك لا تزالين عازبة و لم ترتبطي بأحد، وأنا واثق أنك تحبينني، فلماذا لا نستأنف علاقتنا أقصد، لماذا لا نمارس الحب كلما سمحت لنا الظروف باللقاء.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

احتميتُ بالسخرية كوسيلة سحرية لتلطيف الألم والغضب.

قلتُ له: لكن أنت تسكن في مدينة بعيدة، ولقا....

لم يسمح لي أن أكمل كلامي: أسرع يكشف عن خطته، اسمعي سأستأجر بيتاً في مدينتك بمنطقة نائية، وسأزورك كلما سنحت لي الفرصة.

- بمعدل كم مرة في الشهر؟

- لنقل مرتين.

- لكن هذا لا يكفي. فأنا دمي مشتعل بالرغبة لك.

لم يميز أبداً لهجة التهكم في كلامي، لأنه مؤمن أنه ملك الجنس.

قال وهو يتنهد: كنتُ واثقاً أنك تموتين حباً بي.

لا أعرف لماذا انفجرت بضحك عاصف لدرجة انطويت على نفسي من الضحك، أغاظه ضحكي الهستيري، فسألني: لماذا تضحكين هكذا.

لم أستطع أن أرد لأني كنتُ مستسلمة لكريزة الضحك.

بعد شهر من هذا الاتصال انقضّ علي يوم عيد ميلادي تسبقه باقة ورد أحمر عملاقة، وهدية: العطر الذي أفضلّه، أطبق علي بهديته. رفضت قبول العطر فأصر، فازددت رفضاً، اعتذرت له بلباقة عن استقباله لأن لدي ارتباطات.

قال لي بثقة المالك: الغِها كلها.

بحلقت به: بأي حق تطلب مني إلغاء ارتباطاتي.

ابتسم ابتسامة مُلّغزة: ألا يحق لي هذا الطلب.

انفجرت بصراخ أحسسته يتفجر في شراييني وأعصابي وكل خلية في جسدي.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

- يلعن أبو الساعة التي عملت معك علاقة، يلعن أبو الزمان الذي عـــرفني بحـــيوان مثلك، يلعن أبو تلك الصدفة التي جمعتني برجل قحبة مثلك.... ألم تفهم بعد كم أقرفك وأحتقرك، أليس فيك ذرة إحساس يـــا حيوان... من أنتَ حتى تعتقد أنك ملكتني لمجرد أني عشتُ معك علاقة، طظ في هذه العلاقة....

يـــبدو أن انفعـــالي كان رهيباً لأني لمحتُ الذعر في عينيه، كنتُ مستعدة أن أعمل فضيحة فقط ليخرج من مكتبـــي، خرج أخيراً، وما أن قـــدرت أنـــه صار في الشارع، حتى رميت باقة الورد العملاقة من النافذة وتبعتها بزجاجة العطر.

مـــنال: آســـفة على الإطالة، لكني أظن هذه الرسالة ستهمك، وستدفعك لبحث الأسباب التي تجعل المرأة الشرقية تجني غالباً طعم الندم والمـــرارة بعد نهاية أية علاقة حب مع رجل شرقي اعتاد أن يشعر أنه مالك للمرأة لمجرد حصوله على جسدها.

اعذريني على تلك الرسالة الخاصة، يمكنك نشرها محرفة قليلاً في بريد القراء.

المحبـــــــة

أحلام على الريق

حـــين علمت غيداء أن وزير التعليم العالي سوف يكرّم المتفوقين بنفسه، ويقدّم لهم درع الثقافة جُنّت من الفرح، كانت ابنة الثلاثة عشر ربيعاً مفتونة بالوزير الأربعيني الوسيم تتابع مقالاته الصحفية والتلفزيونية وتعلـــن للجمـــيع أنه الرجل الحلم بالنسبة لها. كانت تصريحاتها تُقابل بالابتـــسام فمـــا تقوله أحلام مراهقة. كانت غيداء واحدة من العشرة الأوائـــل المتخرجين من كلية التربية وعلم النفس، وحين تلّقت الدعوة للتكـــريم وسط حفل ستبثه ثلاث قنوات تلفزيونية اهتاجت من الفرح وأســـرعت تتفـــرس في صـــور الطالبات المتفوقات لتؤكد لنفسها أنها الأجمل. ثم شغلت أمها وصديقاتها ماذا ستلبس في حفل التكريم؟ المقرر في أفخم فندق في العاصمة، كان سفرها وإقامتها على حساب الوزارة وطـــوال ساعات السفر الطويلة بين مدينتها البسيطة والعاصمة كانت تحلم كيف سيكون لقاءها مع الوزير، كيف ستتصور معه، ماذا سيقول لها؟ وماذا ستقول له؟ حاكت مئات السيناريوهات عمّا يمكن أن تقوله لـــسعادة الوزيـــر لكنها استسلمت للتعب ونامت وهي تحلم أحلاماً مـــشوشة بأنها ترقص رقصة حالمة مع الوزير بطريقة تنعدم المسافة بين جسديهما.

كانت الوزارة قد حجزت للمتفوقين من خارج العاصمة في فندق خمـــسة نجـــوم وحـــين دخلت غيداء غرفتها صدمتها الفخامة ورغم

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

إحساسها بالجوع فلم تستطع ابتلاع لقمة، أحست أنها متخمة بالشوق للوزير.

كـــان الحفـــل فخماً يضم أساتذة من كلية الآداب والفلسفة، ألقى عميد الكلية كلمة مؤثرة كذلك معاون الوزير ثم تقدم الوزير الأنيق إلى المنصة وارتجل كلمة سحرت الحضور مبيناً رعايته الخاصة للمـــتفوقين وتـــشجيعه للـــبحث العلمـــي الذي هو أساس تطور المجـــتمعات، لم ترمش غيداء نظرها عن سعادة الوزير طوال الوقت، تتأمله بافتتان شاعرة أن أنفاسها مخطوفة، ثم بدأ سكرتير الوزير يذيع أسماء المتفوقين واحداً واحداً، شعرت غيداء أنها تطير حين أُذيع اسمها و لم تعـــرف إن لامست قدماها الأرض أم طارت إلى المنصة، كيف صـــافحها الوزير وقدّم لها الدرع، ماذا قال لها؟ كيف كان شكل ابتسامتها، لا تتذكر شيئاً سوى أن لمعاناً غريباً أشبه ببرق اشتعل بين عينيها وعيني الوزير.

ثم خـــيّل لهـــا أن ضـــغط بقوة على يدها وهو يصافحها وطوال الـــسهرة كانت محط نظراته المُعجبة وبدورها كانت تتابعه بنظرات وَلَه كيفما تحرّك.

أســـهدها شوقها للوزير طوال الليل، شوق أشبه بالحمى جعلها تتذكـــر تلـــك المـــرات القليلة التي كانت تصاب فيها بالحمى وتهذي معترضة على كمادات الثلج والخل التي تلصقها أمها بجبهتها.

صـــباح الـــيوم التالي كان مقرراً أن يذهب المتفوقون إلى مكتب الوزيـــر ليشكرونه، انتظر الطلاب ساعة ونصف لأن سعادته مشغول باجـــتماع هـــام، ثم طلبت السكرتيرة من كل طالب أن يدخل بدوره ليشكر الوزير، وحين حان دور غيداء ودخلت مكتب الوزير مصعوقة مـــن اتساعه وفخامته والذوق الرفيع لأثاثه والنباتات النادرة في زواياه

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

وجدت نفسها واقفة في منتصف الغرفة مذهولة مبهورة الأنفاس، تقدم منها الوزير فمدت له راحة ببرودة الثلج، أحاط خصرها بذراعيه وطبع قبلة ملتهبة طويلة على فمها قبلة أشعرتها أنها استنزفت كل قواها أحست أنه انتزعها من مجال جاذبيتها وألقاها في جاذبية أخرى، تحسست يداه جسدها الرشيق قبلّها مجدداً في عنقها ووجهها وفمها قبلات أكثر جرأة واقتحاماً. لم تكن تعرف أن افتتاناً مجنوناً يسطع من نظرتها إلا حين لمحت صورتها عَرَضاً في مرآة الحائط، قُرع الباب، فانتفضت غيداء مذعورة، أما الوزير فلم يكترث. دخلت السكرتيرة تستأذنه بدخول الطالب التالي، لم يطلب الوزير من السكرتيرة التريث أومئ برأسه موافقاً، غادرت غيداء مكتبه مسحورة وهي تنظر إلى الوزير نظرات متعبّدة وطوال رحلة العودة إلى مدينتها التي أحستها – مسكينة مثلها – كانت حالمة الهيأة، ذاهلة و لم تستطع الرد على أسئلة أهلها الفضولية عن حفل التكريم بل تعللت بالتعب.

لم تتخيل أن قبلة الوزير ستسحرها فكلما استعادتها تدخل في حالة تأملية أقرب للانخطاف تحاول التعبير عمّا تحسه بالكلمات لكن عبثاً، ثمة استحالة في ترجمة مشاعرها لكلمات فتلك القبلة لانهائية، لها صدى أبدي وعبق يزداد كثافة كل صباح إنها كل صباح تستعيد نشوة تلك القبلة على الريق وقبل أن تشرب الماء وصارت كلما رأته على شاشة التلفاز تغدو عيناها شهوانيتان ويلتمع في سوادهما حريق عاطفة مكبوتة ومتأججة دوماً. ثم صار يضنيها إحساسها الدائم بتأثير تلك القبلة لدرجة تشعر أحياناً أنها شبه منهارة.

تعلّقت بالوزير بجنون، فكان يُلهبها عن بعد كأنه يملك جهاز تحكم بعواطفها أحبته بجنون بعد تلك القبلة، شعرت كأن روحه نفذت إلى روحها من خلال تلك القبلة ووشمت خلاياها.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

وفي كـــل مـــرة تستعيد سحر القبلة اليتيمة تشعر بهزة عميقة في كـــيانها، لأيـــام عاشت مذهولة لا تعرف تفسير ما حدث، لماذا قبلّها الوزير؟ لماذا تحسست يداه جسدها؟! هل هذا طبيعي؟ هل يحق للوزير دون اســـتئذان أن يقبّل زائراته! لكن ألم تكن سعيدة؟! بل كانت أكثر من سعيدة مبهورة ومنخطفة لعالم يضجّ بالإثارة والنشوة، إنها لم تعرف مـــشاعر بـــتلك الحـــدة طوال حياتها هذا القبلة وسام امتياز عظيم لها اعتـــراف بأنوثتها وجمالها من قبل رجل عظيم، نغصتها فكرة أن يكون قـــد قبّل غيرها من المتفوقات لكنها طردت ذلك الاحتمال البشع من ذهنها مؤكدة لنفسها أنها الوحيدة التي أثارت إعجابه.

بعـــد أســـابيع من تلك القبلة السحرية صار هاجس غيداء لقاء الوزيـــر ثانية، لم تفكر أبداً انه متزوج ومرتبط بأسرته، لم تفكر أن فتاة بعمرها يفترض أن ترتبط بشاب تحبه يقاربها في السن، تلك القبلة بلبلت كيانها تركت في روحها حريقاً لا تعرف كيف تخمده.

وبدأت تساؤلات كثيرة تعذبها، ألا يشتاقها الوزير؟ لِمَ لا يحاول الاتـــصال بهـــا؟ هل يفكر بها؟! ألا يشتهي قبلة أخرى؟ صارت تشعر بالمهانة لأن الحبيب يهملها وعانت آلام الحرمان والنبذ بأقسى أشكالها، مـــرّ شهر لم يحاول الوزير الاتصال بها، كان قد أعطاها بطاقته الخاصة فأمكـــنها الاتصال بمكتبه مباشرة، ردت السكرتيرة بصوت آلي تعلمها أنه خارج القطر وقد يرجع بعد أسبوع.

مرّت ثلاثة أسابيع على عودة الوزير و لم يتصل بها أدهشها أن لا مـــبالاته تـــزيد تأجج مشاعرها وتزيد إحساسها بجرح كرامتها، تتساءل متألمة: من أنا بالنسبة له، ألا يحبني؟ لماذا قبلني إذاً؟ أنا رهن إشـــارته ليرفع السماعة ويقول كلمة واحدة فقط، تعالي، وسأكون بين يديه.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

أحست بالانكسار فالأيام تتالى والوزير لا يتصل، اتصلت به وفي نفسها صراع وإحساس بالمهانة تشعر أنها أسيرة قوة أقوى منها، قوة تجبرها على الانصياع لذلك الهوى الجارف أتاها صوت السكرتيرة تخبرها أن سعادته في اجتماع ونصحتها أن تتصل به بعد ساعتين ذرفت دموعاً سخية طوال الساعتين وهي تشعر كم أوهنتها عاطفتها، عاودت الاتصال منتبهة كيف غدا صوتها كالأنين، طلبت إليها السكرتيرة أن تنتظر قليلاً، كادت تيأس أنها ستسمع صوته إلى أن باغتها يقول بعفوية: آسف حبيبتي، كيف حالك.

هل حقاً قال لها حبيبتي، لو يعرف أنه قذف بها من قاع وادي اليأس إلى قمة جبل الأمل، دبت الحيوية في روحها الذابلة، امتلأت بالفرح والنور كمن فتح ثقباً في روحها المحتقنة، انفجرت بكلام سريع كأنها تخشى ألا تتمكن من قوله، تتكلم كمن تسقط في هوة ولا تبالي بالعواقب، أخبرته أنها مشتاقة إليه كثيراً وأن تلك القبلة لا تفارق خيالها وبأنها تعبده وتتمنى لقاءه ثم صار صوتها أشبه بالصراخ وهي تعاتبه أنه لم يحاول مرة واحدة الاتصال بها، اختنقت روحها بالدموع - هكذا شعرت - وهي تسأله وقد ترقق صوتها ترققاً غريباً: ألا تحبني؟ أتاها ضحكه الذي آلمها وأثارها في الوقت نفسه: أنت هائلة، لكن ينقصك شيء واحد، صرخت نافذة الصبر: ما هو؟، أن تعرفي ماذا يعني وزير، أن تقدري أشغالي، سألته شاردة: هل أنا حبيبتك حقاً، أم تقول تلك الكلمة هكذا.

قاطعها: اعذريني، مضطر أن أنهي المكالمة، سنتحدث فيما بعد.

أغلق السماعة قبل أن يسمع ردها، تاركاً إياها في حالة اختناق من ذلك الزحام الرهيب من الخواطر المشوشة والإحساسات المضطربة، حاولت التمسك بكلمة "حبيبتي" كغريق يتمسك بقشة لكنها عجزت

تماماً عن إدخال أي قدر من السلام إلى روحها، لا تعرف مسك طرف خيط أفكارها.

صارت عصبية تتشاجر مع كل من حولها وتستثار من كل كلمة، رفـضت بشراسة التعرف بالطبيب الشاب الذي تقدم لخطبتها والذي يـؤكد كل من يعرفه أنه شاب ممتاز، أحست أنها تصدّه كما يصدها الوزيـر، فهـي تنتقم من هجران الحبيب بتعذيب شاب يحبها، تملكها هـاجس طـاغ أنهـا مصرة على رؤية الوزير ثانية لتنتزع منه اعترافاً بقيمـتها، تعلّقـت به كرمز للرجولة والإثارة ولم يزدها الوقت سوى التهاباً وعناداً.

مرّت أسابيع ولم يتصل بها الوزير كما وعدها، عاودت الاتصال بعناد الحب اليائس بمعاناة وآلام الحبيب المرفوض، وبعد محاولات عديدة سمعت صوته، لم تعاتبه بل حددت هدفها: متى سأراك؟

- في أي وقت، قالها بلا مبالاة.

- أصرّت: حدد وقتاً.

راوغ مـتعللاً بأشغاله وعدها أنه سيتصل بها خلال أيام ليخبرها عن اليوم والساعة، عاشت الأيام التالية بحالة هياج واستعانت بالحبوب المهدئـة التي تستعملها أمها، لم تنتظر أن يتصل بل كلمته فاقدة الصبر فقال لها تعالي غداً. حاكت كذبتها بيسر وسافرت إليه، وصلت مكتبه مـنهكة من الانفعالات تحس بعطش شديد، كانت تتخيل أنها ستسعد سعادة جنونية حين تراه، لكن ما أن واجهته حتى أحست أنها تهوي في قـاع بئر لا قرار له، في عينيه جمود غريب لم تجد له تفسيراً، عيناه بلا تعـبير بلا شوق، خنقَ في نفسها للحال الرغبة بالبوح تشوشت نظرتها المتعـبّدة لـه، ولم تستطع أن تتكلم إلا بكثير من العناء، سألها ببرود مهـذب ماذا تشربين؟ قالت بصوت واهن: ماء. استمرت تحدق به لِمَ

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

لا يقبلّها، ما به جالساً وراء مكتبه متعالٍ وضجِر، فجأة قرأت في عينيه الحقيقة: إنها لا شيء.

انفــرجت شــفتاها قليلاً من ذهول ما تعانيه وبعد جهد قالت: كنت أعتقد أنك تحبني كما أحبك.

امتعض وهو يرد: لا أفهم حباً يقوم على اللاشيء.

غامت الدنيا أمام عينيها ودت لو تصرخ به: لماذا قبلتني إذاً؟ لماذا داعبتني؟

قــرأ ألمها في عينيها، قال مؤاسياً: لا تزالين صغيرة، وتجاربك في الحياة قليلة، خذي الأمور ببساطة، ولا ترهني نفسك لموقف عابر.

انفجــرت بالــبكاء فلم يتأثر كان ينظر معظم الوقت إلى خاتمه الضخم ذو الحجرة الخضراء العملاقة أحست في داخلها سُماً، لم يكلف نفسه بمسح دموعها و لم يمد لها منديلاً، أكثر ما يؤلمها إحساسها أنه لا يحترمها، أي جنون دفعها إليه، ولماذا طبع تلك القبلة الملتهبة على فمها؟ أكان يلهو؟ أم أحب أن يتذوقها؟.

أمامها أيام طويلة لفك ألغاز تساؤلاتها، استأنفت حياتها مكسورة الخاطــر، مُهانة، وقبلت الخطبة للطبيب الشاب لكن قبلات الخطيب لم تــسحرها كقــبلة الوزيــر، إنها لا تزال أسيرة تلك النشوة الهائلة التي تتذوقها كل صباح، بل مرات عديدة في اليوم.

ذات صــباح وفيما ترشف قهوتها مستعيدة كالعادة نشوة القبلة الــسحرية، سمعت المذيع يُعلن أن حدثت تغيرات في الوزارة وأن وزير التعلــيم العالي نُحي من منصبه، واستبدل بآخر، ارتجف فنجان القهوة بقوة في يديها، فجأة أحست بالشفاء وتحررت من تأثير تلك القبلة بل أحــست أن في تلــك القبلة وقاحة وانتهاك لكيانها وأن شفتا الوزير ذابلتان وطعم شفتاه منفّر.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

تمطت بسعادة ونشوة، سعادة من يشفى من مرض مستعص، ياه لقد شفيت من سحر قبلة الوزير الذي ما عاد وزيراً.

امرأة من غيم

الثالثة بعد الظهر، إنه وقت التأمل المثالي للنساء الوحيدات،هذا ما فكـــرت بـــه وهي تنتحي زاوية في حديقة عامة تناثرت فيها طاولات وكراســـي بلاســـتيكية، وغـــير بعيد كشك صغير يديره شاب يقدم الأركيلة والشاي والقهوة للزبائن.

رائحـــة الخـــريف وألـــوانه تحّرضـــان في نفسها الشجن رغماً عنها،ستبلغ الثانية والخمسين بعد أسبوع،وسيبلغ زوجها العمر ذاته بعد ستة أسابيع. تحس أن الخريف عصب حياتها،فقد تزوجت الرجل الذي أحبـــته في الخريف،فرا معاً قبل أن يكملا العشرين من عمريهما رغم معارضـــة الأهل، سرح نظرها في الأعشاب التي بدأ يطغى عليها اللون الأصـــفر،تذكرت السنوات الأولى من زواجها، كيف عاشت في غرفة حقيرة في قبو لا يدخله شعاع الشمس.

كانـــا ينامان على فرشة على الأرض ويعلقان ثيابهما القليلة على تعلـــيقة خشبية مخلعة،ومع ذلك فالسعادة التي عرفتها في تلك السنوات كانـــت كثيفة وسخية، ولم تعرف ما يشبهها طوال حياتها حتى عندما رزقـــت بـــولديها. تأملها النادل بنظرة متفتحة، أحست أنه يحرز أن كـــرامتها جريحة، ففي نظرته رقة وتعاطف. ابتسمت له، قدرت أنه في عمر ابنها، طلبت معسل الورد وفنجان قهوة.

الطـــاولات حولها فارغة، امتدت يدها بحذر إلى ظهرها متظاهرة

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

أنهـــا تحكه لكنها تمكنت من فك حمّالة نهديها، ياه كم تزعجها البدانة، لكن ما باليد حيلة، ما من تعزية سوى الطعام خاصة الحلويات. وضع النادل الأركيلة بجوارها، وانتظرها حتى سحبت نفساً وأطلقت الدخان من فمها، شكرته، فرد عليها بابتسامة حقيقية.

كان للقهوة مذاق رديء لكنها لم تمتنع عن رشفها ببطء، أحست أنهـــا تـــتذوق طعـــم أيامها. توقفت ذبابة هرمة على الطاولة همت أن تطردها، لكنها وجدت نفسها تحدق بها متفرسة كأنها تبين فيها ذاتها، اســـتمر تحديقها في الذبابة بعناد وإصرار كأنها بحثت عن حل لغز، ثم طفحـــت عيناها بالدمع الحار، فيما وجهها ظل هادئاً هدوء الاحتقار والازدراء لزوجها الذي لا يفارق ذهنها؟!

مـــرت بجانبها امرأة شابة تحمل طفلاً صغيراً، تابعتها بنظرة أسيانة حـــتى اخـــتفت تفتق بذهنها الذي تحسه متبلداً منذ سنوات سؤال: ما الذي يبقى للنساء بعد الخمسين من عمرهن؟!

ورغـــم بساطة السؤال فإنه أدهشها لأنها لم تطرحه بتلك الصيغة العاريـــة البـــسيطة مـــن قبل و لم تستطع أن تجيب على الفور - كما تـــوقعت - كـــان عليها استعراض حياتها عسى منطق تسلسل الأمور يقودها إلى نتيجة.

بنظـــرة مهمومة تابعت الحركة البطيئة للغيوم، ابتسمت بسخرية، فهـــذه هي الصفة الوحيدة التي لم تتغير فيها منذ طفولتها، كانت مولعة بمـــراقبة الغـــيوم وبتشبيه أشكالها. إنها تحسها الآن موكب من النساء الكئيبات الخمسينيات.

فكرت وهي تسحب نفساً عميقاً من الأركيلة أنها منذ زمن طويل تـــشتهي الخروج من عزلة روحها، لكن كل المحاولات فشلت، فابنتها منـــشغلة بأطفالهـــا، وابـــنها سافر إلى دول الخليج ليعمل، وصديقاتها

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

تقمصن بسهولة شخصية الجدات، قانعات بالقالب الذي يتوجب عليهن العيش ضمنه، و لم يبق لديهن أية رغبة في طرح سؤال احتجاج، إنها الوحيدة التي لم تكف عن طرح الأسئلة!

مر شريط ذكرياتها بالياً باهتاً أمام ناظريها، لقد برعت في عملها الوظيفي، وكانت زوجة مثالية وأماً ممتازة، كانت مثل النحلة في نشاطها وكالنملة في دأبها، و لم تكن تشكو أو تتذمر من أعبائها، ففي داخلها طاقة مذهلة للعطاء، و لم تعرف الأرق أبداً، إذ كانت تغفو ما أن يلامس خدها المخدة.

وحين بلغت مرحلة الراحة وتقلصت مسؤولياتها، وحققت مع زوجها مستوى معيشة مرفهاً أحست أنها تنتظر مكافأة عظيمة من الحياة. لكن الحياة طعنتها في صميم كرامتها جرحاً بليغاً ستظل شفتاه نازفتان مدى الحياة.

فرفيق عمرها تنكر لها وصار يتنقل من عشيقة إلى عشيقة في البداية كان يحرص على شعورها فينكر علاقاته، لكنه مع الوقت صار يحدق بها بنظرات لا تتصارع ولا تتكسر ويصرخ في وجه الحقائق التي تواجهه بها أنه حر بحياته، وإن لم تقبله كما هو فهي حرّة باختيار حياتها.

فجأة سقطت الجمرة عن سطح القرص، منبهة إياها لحقيقة ظلت غامضة عنها طول حياتها، إذ إن أهم قيمة في حياتها هي الخوف من الناس ومهابة العادات والتقاليد، فكرامتها الجريحة بعد خيانات زوجها تدفعها لطلب الطلاق، لكن المنطق النفعي لعقل ونصائح المقربين يمنعانها من طلب الطلاق، فمعظم الإمبراطورية المالية التي حققاها مسجلة باسمه فلم يخطر لها يوماً أن تحذر من الرجل الذي أهدته روحها زوجها الذي اعتقدت أنها تعرفه وتقرأ أفكاره حتى لو كان كل منهما في غرفة، صار

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

إنساناً غريباً حين بلغ منتصف العمر، تساءلت: ترى لو ظل فقيراً، هل تجـرأ وعشق شابات في عمر ابنته. تذكرت باشمئزاز أنه أجرى عملية لتجمـيل أنفه وهو في الثامنة والأربعين. وأنه صار مهووساً بالتمارين الرياضية وبربطات العنق والأحذية الفخمة والعطور.

في بداية اكتشافها لخياناته لم تعرف كيف تكبح انفعالاتها وكيف تـتوقف عند حد كانت تتكلم مع الجميع عن خياناته، تعيد التفاصيل ذاتها، تتكلم لساعات طويلة كلاماً أشبه بالصراخ لكنها تشعر أنها رغم كثرة الكلام لا تتوصل للتعبير عمّا تريده. ترى ماذا تبغي من وراء تلك الـروابع الكلامية؟! صحيح أنها تشعر بالظلم والقهر، فمشوار كفاحها مـع رجـل حياتها تمخض عن خيانة. فعند أول علامات ذبول شبابها هجـرها دون أن يـشعر بذرة تأنيب ضمير. لكن بطانة صراخها فيه احـتجاج عميق للفكر السائد وللتصنيفات الجاهزة والمسلمات التي لا يجـرؤ أحد على الاعتراض عليها، إنها تصرخ في وجه الناس لماذا العمر في مـصلحة الرجل دوماً؟! ما الفرق بين امرأة في الخمسين ورجل في الخمسين؟ كلاهما يهرم، كلاهما يذبل؟

ثمة هوة كبيرة في تفكيرها تعجز عن ردمها، مجرد تساؤلات تهيم حـولها، لمـاذا لا يستهجن سلوك رجل في الخمسين يرفع شعار المتعة واسـتعادة الشباب الزائل بإقامة علاقات مع شابات صغيرات؟! بل إنه يكـشف عن رغباته بنوع من الوقاحة كأنه يصرخ في وجه الناس بأن كل شيء مباح له.

تململـت في مقعـدها الـذي يـضغط بمـسنديه على وركيها المكتنـزين، وتساءلت كيف سارت حياتها بطريقة لا يمكن التنبؤ بها، تذكـرت بألم السنوات الأولى من خياناته كيف أحست أنها تشارف علـى الجنون، كانت ترفض التصديق أنه يخونها، وتطيش حواسها من

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

الألم وهـــي تتخيله عارياً مع عشيقته الشابة، فتبكي كالطوفان وتطلب العون من الأصدقاء حتى صاروا يتضجرون منها، وتلتهم كميات هائلة مـــن الحلوى، وأحياناً تجبر نفسها على تقيئها. تابعت دخان الأركيلة الـــذي يتبدد كأحاسيسها، فكرت أن كل تعاطف الأصدقاء معها كان ســـطحياً، في جوهـــر كلماتهم المغرية لها تراخ ومسامحة لسلوك الزوج الذي استيقظت حيويته الجنسية والعاطفية مجدداً في الخمسين، تظاهري أنك لا تعرفين شيئاً، ودعي أيامك تمر بسلام.

الكل كان يجمع أن أهم شيء في حياتها أولادها، وأن، عليها أن تعطـــي ذاتهـــا لهم وهي في الخمسين، فهم مستقبلها. كم تشعر بالغبن والظلـــم مـــن تلك الأفكار تذكرت نصيحة إحدى صديقاتها: اسمعي، علـــيك أن تخفـــضي وزنك وتعودي رشيقة وإن لم يعد لك زوجك، فاتخـــذي عشيقاً، وأنا أفضل لك العشيق، لم لا تجرب المرأة رجلاً آخر غير زوجها، هذا حقها.

اســـتعادت الحـــوار بينها وبين صديقاتها وابتسمت. ترى ما هو الصواب في كل تلك الآراء المتناقضة التي سمعتها. ترى هل من الصواب في وضـــعها الحالي أن تقاوم صوت العقل أم صوت العاطفة؟ لكن لماذا كـــل شيء يختلط بذهنها؟! أكثر ما يؤلمها إحساسها بالمهانة، ليس لأنه خانها، بل لأنه نسيها حقاً. إنه يعود للبيت مساءً يتعشيان معاً، ويتابعان الـــبرامج التلفزيونية، لكنها تشعر تماماً أنها غير موجودة في حياته، يمكـــنها وهي جالسة في قوقعة وحدتها أن تحس بنشوته مع عشيقته الشابة.

تذكـــرت ذلك الزمن البعيد حين كان يحتاجها كحاجته للهواء، كم تخيلت وانتظرت أنهما في منتصف العمر سيتأبطان ذراع بعضيهما ويـــسيران كـــتفاً إلى كـــتف مستعرضين مشوار كفاحهما وسيكون

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

أمامهمـــا سنوات طويلة للرفاهية والدفء الوقور لزوجين في منتصف العمر.

نظـــرت في ســـاعتها لم تستطع منع نفسها عن تخيله كيف يتأنق ويتعطر ليلتقي عشيقته التي يغدق عليها المال والهدايا. رفعت نظرها إلى الـــسماء، الغيوم ساكنة كثيفة تميل للرمادي، حدقت فيها بشغف، لم تستطع منع نفسها عن الابتسام، لا كتشافها أن ثمة غيمة تشبهها تماماً، أجل هناك في قبة السماء وجهها، امرأة من غيم تبتسم ابتسامة متعالية.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

العقاب

لم يـــشجعه علـــى المضي في قراره سوى عنف يأسه، جمع بعض أغراضـــه كيفما اتفق دسّها على عجل في حقيبته، شعر أن هذه اللقطة غـــير غـــريبة عنه فهي تمثل حلمه الوحيد على مدى عشرين عاماً من الجحيم الزوجي، تردد هل يكتب لها ورقة أم يغادر دون أن يُعلمها، لم يكـــن بحالـــة تسمح بالتفكير فهو مختلف بانفعالاته المكبوتة في صدره، كـــان يكّز على أسنانه وهو يقول: لن أعود أبداً. ورغم أن خوفاً أصم كـــان يكمشه في كتفيه ويخنقه قلقاً على أولاده، إلا أنه مضى في قراره الذي لن يتراجع عنه ولو قامت الدنيا.

ابـــتلع حبـــتين مهدئتين وهو يستحضر صورة الطبيب الواثق من نفـــسه يحذره: عليك أن تنتبه جيداً لصحتك، رجل مثلك على أعتاب الخمـــسين عمله مرهق وطويل يجب أن يحذر الانفعالات القوية، وليس ضغطك المرتفع إلا بسبب الانفعال.

انطلق بسيارته غير عارف وجهة محددة، باغتته دموعه كان بكاؤه مـــؤلماً، بكاء رجل لم يعتد على ذرف الدموع، حاول أن يهدئ نفسه وأن يحـــثّ ذاكرته لاستعادة صور سعيدة قبل زواجه، إلا أنه لا يعرف من أيام عزوبيته سوى صور ضبابية وطعم عذب تتركه الحرية في حلقه، المديـــنة متلألـــئة بأنوارها رغم الظلام، أين عساه يذهب؟ هل يقصد الفندق الذي اعتاد أن يلتقي فيه بعض عشيقاته اللاتي يلجأ إليهن هروباً

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

مـــن جحـــيم زوجـــته عساه يجد لديهن العون في شفائه من إحساسه المستمر بوطأتها.

لا يـــتمنى ســـوى أن يتوصـــل لشعوره بالفراغ منها، فهي تحتل حواسه وتسممها، يشعر دوماً أنها تملؤه بالفوضى والتوتر وتشتت ذهنه جاعلة إياه في حالة لهاث من التوتر الغامض...

قـــرر الـــذهاب إلى فندق لم يقصده من قبل، يريد أن يضيع بين غرباء، أن ينسى نفسه، يتمنى أن يسترخي ويلملم بقايا روحه الممزقة، أعطـــاه عامـــل الاستقبال مفتاح غرفته وهو يتمنى له ليلة سعيدة، تمدد على السرير وهو يشعر أن جسده كوتر مشدود، فتح النوافذ ليستقبل هـــواء الليل الرطب، خبط على صدره مغتاظاً لأنه شعر أن الهواء ملئ بأنفـــاس زوجته، بل أحس أنه لو ذهب إلى آخر الدنيا فستظل تسكنه كجلـــده، كيف ربط حياته بتلك المرأة الهستيرية، التي يحسها كعقاب على ذنوب لم يرتكبها.

وتحـــت ســـتار حـــبها العنيف له، كانت تمتص حياته وحيويته وشخـــصيته وتحيله لهيكل رجل فارغ إلا من اليأس والألم، منذ الأيام الأولى لـــزواجهما أرادتـــه أن يبجّل عذريتها وأن يكون ممتناً لها كونها حافظت على شرفها في زمن صار كل شيء مغشوشاً خاصة العذرية. ادعـــت أنهـــا عانت آلاماً رهيبة ونـــزفت نصف دمها وهي تقدم له عذريتها كهدية لا تقدر بثمن! لدرجة تمنى في سره لو لم تكن عذراء، واســـتمرت آلامها بعد كل وصال لمدة شهرين، حتى أنه اتخذ قراراً ألا يقـــربها لأسابيع، حاول أن يعتبر تصرفاتها الغريبة ضمن الطبيعي، لكن ردود فعلـــها تجاه ابتعاده عنها كانت كارثية، فذات يوم عاد من عمله مـــرهقاً لـــيجدها بحالـــة هستيرية تضرب وجهها بقسوة وتمزق صور زفافهما وترمي الوسائد أرضاً وهي تعوي من الانفعال: أنتَ لا تحبني.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

جمدتــــه المفاجأة و لم تكن لديه أية خبرة عملية أو حتى نظرية في التعامل مـــع هذه الانفعالات المجنونة، أول شيء قام به إغلاق النوافذ ثم اقترب مـــنها بحذر كما لو أنه يقترب من أفعى يخشى أن تباغته وتلدغه محاولاً فهـــم سبب جنونها، صرخت، أنت لا تحبني وإلا كيف تتحاشاني لأيام ونحن لا نـــزال عروسين.

لم تترك له المجال ليفهمها أنه يفعل ذلك لأجلها لأن آلام الجماع التي تحس بها تجعله وحشاً في نظر نفسه إن لم يعطها فرصة للراحة، زاد كلامــــه من هياجها واتهمته بالكذب والنفاق ثم عممت كلامها على الرجال كافة.

لم يكـــن يعـــرف كيف تنتهي نوب انفعالاتها، لكنها تهدأ هدوء عاصــــفة تعـــبت مـــن زخمها، تنطفئ حين لا يعود بمقدورها الصراخ والضرب والبكاء، تحوّلت حياتها معه لرعب وترقب وفي نهاية كل نوبة هستيرية كان يتوجب عليه التمثيل أنه اقتنع بحججها وأنها خرجت من الـــشجار منتـــصرة، وأخيراً عليه أن يضاجعها كتتويج لعذابه وتمزقات روحـــه، يقترب من جسدها العقوبة - كما يسميه - و لم يكن قادراً علـــى القـــيام بذلك الفعل الفظيع إلا بدعم قوي من خياله يصوره مع نساء فاتنات وهادئات وبمساعدة عدة كؤوس من الكحول.

في حملـــها الأول زجته رغماً عنه في آلام وحامها، فكانت توقظه مـــن نـــومه ليشهد اقياءاتها الصباحية الصفراء والتي تفوح منها رائحة كريهة.

وحـــين كان ينفجر غضباً صارخاً بها: لماذا توقظينني، هل لأتفرج علـــيك كـــيف تتقيـــئين؟! فتصرخ بجنون أنت لا تحبني ولا تحس بأية عاطفــــة وتعاطـــف معي، لا تريد من جسدي سوى اللذة، أما آلامي وأوجاعي فلا تشاركني بها.

صـــار يشعر برعب يتكمش في داخله مذعور دوماً مما يمكن أن تقـــوم بـــه، يـــشعر أن من واجبه حمايتها من جنونها كي يحمي نفسه وأولاده، كانت تشعر أنها عظيمة لأنها أنجبت له ثلاثة صبيان، و لم تكن تجيد العناية بهم فألقت عبء تربيتهم على الخادمة السيرلنكية، كم تأمّل أن تغيرهـــا الأمـــومة لكنها استغلت أولادها لتضيق الخناق عليه أكثر فأكثـــر، حـــتى استحالت الحياة بنظره إلى مشقة وألم، لم يعد يعرف الابتـــسام وحـــين تضطره الظروف للابتسام يشعر أنه كل مرة يرسم ابتـــسامة مزيفة على وجهه يعرف تماماً أنها لا تحبه بل تريد سحقه، ثم بـــدأت غيرتها المجنونة كلما امتدح امرأة أو تحدث إلى سيدة برقة، تبدأ شكوكها التي تتحول بقوة خيالها إلى يقين بأنه يخونها، وأكبر دليل أنها تتـــصل بـــه مراراً في مكان عمله ولا تجده في أحيان كثيرة كان يفقد قدرتـــه على الاحتمال فينفجر بغضب رهيب ويصفها بأبشع الصفات ويُعلمها كم يكرهها وكم أنها جحيمه ويتمنى موتها، كان يتفرج عليها متلذذاً كيف تصغي إليه مصعوقة مبهورة الأنفاس، ثم تبدأ نوب جنونها الـــتي تمـــثلها بإتقان فتتظاهر بضيق التنفس وتقوم من مكانها مترنحة ثم تـــسقط أرضاً مغشياً عليها، في بدء تلك النوب يكاد يصدق أنها تفقد الوعي حقيقة، لكنه مع تكرار تلك النوب لاحظ أنها تختار المكان الذي ستقع فيه كي لا تصاب بأذى، لكن مهما كانت الأسباب فهو مضطر للخـــضوع لمشيئة امرأة هستيرية خاصة حين يلمح الدموع والفزع في عـــيون أولاده وحين تبدأ بمناجاتهم بصوتٍ كالأنين والدموع تنسكب مـــن عينـــيها: آه يا أحبائي، أترون والدكم يريد موتي لتصيروا يتامى، اليتيم يا أحبائي هو يتيم الأم.

يبكي الأطفال بالتأثر والعدوى من أم لا تعرف سوى تسميم حـــياتهم، فيـــضطر الأب إلى لملمة الموضوع شفقة على أولاده غير

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

الـــواعين أن المامـــا ممثلة وضحية مرض نفسي لا يعرفونه، لكنهم يعيشون آثاره.

كـــم مـــن المرات وضع رأسه تحت الماء البارد كأنه يتمنى إطفاء لهيب عواطفه، كم من المرات هجّ من المنـــزل بعد منتصف الليل ليتوه في شـــوارع معـــتمة صارخاً بكل طاقته على الصراخ حتى يبح صوته، ويعـــود منكسراً إلى البيت ليربت على كتف زوجته معتذراً لها وواعداً إياها أن يتعلم كيف يحبها.

صار يشعر كل صباح أنه معّرض لكل الاحتمالات، كل صباح يسائل نفسه: هل سيمر هذا اليوم بسلام؟ إنه لا يريد سوى العيش بـــسلام، وكـــي لا يختـــنق صـــار يلجأ بين وقت وآخر للعلاقات العابـــرة... لكـــنه كفّ عن هذا الهروب لأنه لم يجد ما تتوق إليه روحه: الدفء.

بدأ يفاجئ نفسه بنوب ضحك هستيرية تنتابه من دون سبب، أو لأتفه سبب، ينفجر ضاحكاً حتى ينطوي على نفسه وتسيل دموعه، لم يكن ضحكه سوى تعبير عن عمق يأسه.

انـــتفض مـــن السرير مكتشفاً حقيقة غابت عن ذهنه سنوات، الجـــريمة الحقيقية هي عدم عيش الحياة بكرامتنا وكما نريد، أجل لقد ارتكـــب جـــريمة بحق نفسه بإذعانه لامرأة تسعى لتدميره عشرين عاماً سممـــت حـــياته، دمرته معنوياً ونفسياً وأحالته إلى رجل مبلبل الحواس يعـــيش حالة فزع وترقب مستمرة، يخاف من أية لحظة أن تنفجر نوب عصبيتها المجنونة.

فـــتح البراد تناول زجاجة بيرة مثلجة، شربها، شاعراً أن البرودة تطفـــئ نـــار أحشائه، ياه ما ألذ خدر الكحول، شرب زجاجة ثانية، شـــاعراً باسترخاء ونعاس، غفا شاعراً لأول مرة أنه يحتضن نفسه، ياه

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

كـــم اشـــتاق أن يعانق روحه، أحس أنه منذ زمن بعيد لم يختلِ بنفسه دون خوف، فزوجته تدس نفسها بينه وبين روحه.

هـــل أغفـــى حقاً وبدأت أحلامه تنساب بسلاسة، أم أن ما يراه أحـــلام يقظة؟! حاصرته الصور التي أراد الهروب منها، وكلما ألحّ في طردها تكثفت أكثر، تذكر يوم أراد السفر لزيارة صديق له في اليونان، كـــيف جن جنونها واتهمته أنه لا يحبها وإلا لفكر باصطحابها معه، بل اتهمـــته أنـــه مسافر ليخونها.... النتيجة كانت أن اعتذر لصديقه عن زيارته في اليونان.

أفاق على شعور ملحٍ بالرغبة بالتبول، للوهلة الأولى لم يعرف أين هـــو؟ كمن أصابه فقدان ذاكرة، ثم تذكر لِمَ هو في الفندق، هل حقاً قرر هجر المنـــزل؟!

أحـــس بطعنة ألم في قلبه وهو يتذكر أن ابنه الأصغر لديه امتحان الـــشهادة الإعدادية بعد أيام، وضع رأسه تحت الماء البارد شاعراً بطعم دموعه الساخنة المالحة في فمه، مميزاً إياها عن الماء شديد البرودة ودون أن يجفف وجهه ورأسه خرج من الفندق، قاد سيارته بيدين مرتعشتين كقلبه، وحين دخل سجنه الأنيق رآها جالسة في الصالون محتقنة الوجه مـــتورمة العينين وفي حضنها علبة مناديل ورقية مستعدة لتلقف دموعها ولعابها... أخذ نفساً عميقاً استعداداً لمسرحية الجنون.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

جسد بلا رائحة

لمـــاذا يتزوج الكهول؟! هذا ما كانت تفكر به وهي جالسة على الأريكـــة الكـــبيرة في الـــصالون الفسيح، والقاطع الخشبـــي العريض يحجب زوجها عنها، لم تكن ترى منه سوى قدمه العارية تنتهكُ نظرها بقبحها، بأظافرها الطويلة المهملة الأشبه بمخالب خشبية، وظفر الإبهام المسّود من الفطر، نبهها جلده السميك المبقّع كم يشي الجلد بالعمر، لم تستطع أن تُبعد نظرها عن تلك القدم المقززة والتي يمررها على فخذيها وســـاقيها أثـــناء حفلـــة الغرام المريعة بينهما. أحست أن أصابع قدمه الخمـــسة أشبه بعيون مشوهة تحدق بها، وكأنها تذكرها بأنها لو وُفقّت بـــزوج شاب لما تزوجت العجوز. هزت رأسها مذعنة للحقيقة وأقرّت أنهـــا تـــزوجته بملء اختيارها زواج العقل والمصلحة بعد أن يئست من الحب المتكافئ والمنـــزّه من الأغراض، كانت في منتصف عقدها الرابع تعـــيش أوضاعاً أسرية خانقة محشورة مع تسعة أشخاص في غرفتين، أم وأب مريضين دوماً وغارقين في الكآبة، زوجة أخيها مع أطفالها الخمسة تـــندب حظهـــا طـــوال الوقت وتشكو سوء الحظ، هي التي شجعت زوجهـــا على العمل في التهريب فأودع السجن بعد العملية الأولى... أخـــيها الأصـــغر طالب الجامعة العصابـــي الذي لا يجد مكاناً لكتبه ويعجـــز عن الدراسة في هذا البيت الحقير وهي العانس التي عانت من خيـــبات الحب المتنوعة وفقدت أملها في الحصول على زوج يقاربها في

العمر يكون صديقها في معركة الحياة القاسية، في هذا البلد المتخلف لا أحد يستغرب أو يستنكر أن يتقدم رجل في الستين أو السبعين للزواج مـــن امرأة في الثلاثين أو الأربعين! الرجل لا يعيبه عمره، زواجها كان مُدبـــراً عن طريق وسيط، صديق أخيها منذ الطفولة أقنعها بالزواج من المحامي السبعيني المشهور والثري، سيؤمن لها حياة كريمة وسيعطف على أسرتها كان المحامي رجلاً مثقفاً معروفاً بمؤلفاته في مجال القضاء، لا تنكر أنهـــا أحـــست بنشوة انتصار وهي ترى رجلاً مرموقاً في المجتمع يتقدم لخطبـــتها، ورغم سنواته السبعين فإنه بدا أنيقاً في بذلته الكحلية وربطة عنقه القرمزية.

قـــبلت مدرســـة الابتدائية الأربعينية الزواج من المحامي السبعيني علاقـــة اعتقدت أنها متكافئة إلى حد ما، فهو يقدم لها الاستقرار والثراء وهي تعتني به في شتاء عمره، لكنها صُعقت منذ الأيام الأولى، فالعيش معـــه تحت سقف واحد كان يفوق تصوراتها وقدرتها على الاحتمال، فمن الليلة الأولى صفعها ترهل جسده المُقرف أحست أنها خُدعت لأنه كـــان يبدو معقولاً ببدلاته الأنيقة، أما وهو عارٍ بكرشه المندلق الرخو وثديـــيه المتهدلين وأشعار جسده القليلة المبعثرة المصفرة، ورقبته المجعدة ورمـــوش عينيه وحاجبيه اللتين تساقطت أشعارهما فهذا ما جعلها تحس بالغثـــيان والقرف لحد أنها تمنت له الموت من كل قلبها وحقدت عليه لأنـــه يتجـــرأ ويتزوج! كان متعطشاً لجسدها، لجسد امرأة لا تزال في بهائهـــا، في قمة نضوجها برائحة الأنوثة المتكثفة في جسد امرأة أربعينية رشـــيقة ورياضية لم تتحمل قبلاته العشوائية أحسته نسي كيف يتبادل العشاق القبلات، انتابها إحساس أنه يعتمد على مخزون ذاكرته الغرامية عساه يُعيد الحركات ذاتها التي كان يمارسها حين كان شاباً، تهربت من شـــفتيه اللحميتين المهترئتين واللتين أحستهما كممصين، بأن وجهتّ

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

وجهه إلى صدرها ودفنته بين ثدييها، بدا منتشياً حتى الضياع بالنهدين، لم يـــنفك عن مداعبتهما وعصرهما حتى صرخت من الألم قائلة وهي تكظم غيظها: ليس هكذا.... أقصد ليس إلى هذا الحد.

لكـــنها أرغمـــت نفسها على مداعبته قليلاً مدارية رجفة تنتابها بـــسبب شـــدة توتـــرها وقمعها العنيف لقرفها منه، حاولت أن تفكر وجـــسدها عـــار بجانب جسده الذي يحرض قرفها كل لحظة أنه كريم معها أعطاها الفيلا وسمح لأسرتها أن تسكن الشقة الواسعة التي يملكها في طـــرف المدينة كما أنه يسمح لها أن تصرف بلا حدود على لباسها وأغراضها الشخصية.

غـــير جلـــسته فغابت قدمه المقززة عن نظرها، كان يتابع حواراً سياسياً في التلفاز وهي جالسة بالوضعية ذاتها على الأريكة مستغرقة في خـــيالاتها الكئيـــبة، تذكرت أنها سمت علاقتها الجنسية به "بمضاجعات الـــبول" لأنـــه كان يبللها ببوله رغماً عنه لأنه مصاب بالسلس البولي ويـــداري خجلـــه بمزاح ثقيل، ولم يكن يجد حرجاً في إحضار منشفة ليجفف جسدها الملطّخ

بـــبوله، كانـــت تـــتحمل كل هذا القرف مذهولة بقدرتها على الـــتحمل، وراغـــبة في الـــوقت ذاته على التعرف على المظاهر المريعة للـــشيخوخة مكـــررة ســـؤالاً يـــزداد إلحاحاً في نفسها: لماذا يتزوج الكهـــول؟! كانت تضطر أن تعتني به أثناء حفلة الغرام الزائفة كما لو أنها تعتني بمريض وحين كانت أنفاسه تتلاحق لاهثة كأنه مصاب بالربو كانت تخشى أن يموت بين ذراعيها.

لكـــنها بعد أشهر من زواجها استطاعت أن تجد نوعاً من التوازن في علاقـــتها معـــه فهـــو لا يحتاج جسدها إلا في أوقات متباعدة كل أســـبوعين أو اكثـــر، صارت تبالغ في الشراء تتفرج على نفسها كيف

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

تشتري وتشتري كمن يرغب بسد فراغ كبير في روحه، لكن عبثاً، ثم ترمي بمشترياتها في خزانتها، وغالباً ما تنسى ما اشترته فتعيد شراء الأغراض ذاتها بعد أيام!.

كل صباح كانت تتأمله بعين متفحصة وتقيس المسافة بينه وبين الموت، حيرها إحساسها بالإرهاق الشديد منذ الصباح رغم ساعات النوم الطويلة، لكنها مع تعاقب الأيام عرفت سر إرهاقها، فالصباح يبشرها بقدوم نهار كامل مع العجوز، ثم بدأت مشاعر جديدة غير متوقعة تداهمها فتحس كم هي تافهة، لم تشعر من قبل أبداً أنها تافهة رغم قسوة الحياة، أما بعد زواجها منه فبدأ هذا الشعور يسيطر عليها فكل يوم تقوم بالواجبات ذاتها، تحضير فطوره الخاص المعتمد على القمح وعصير البرتقال وبعض قطع الفاكهة المجففة ثم إعطاءه سلسلة من الأدوية التي يريد أخذها من يدها حبة بعد حبة ومن واجبها أن تحدثه في الصباح أي كلام فهو يحب الثرثرة الصباحية تتفرج على نفسها كيف تتكلم شاعرة بفراغ كلامها مدركة كيف تخرج الكلمات منها غريبة فتستغرب كيف تلفظها بعد زواجها صار هناك غربة بينها وبين اللغة فكلامها شيء وروحها شيء آخر، نمت لديها هوايات غريبة فصارت متلهفة لمتابعة أوراق النعي، تسجل إحصاءاتها في دفتر وكم أحست بذعر حين كانت نسبة وفيات الشباب بين الأربعين والخامسة والأربعين تفوق بثلاثة أضعاف وفيات الكهول بعد السبعين، أحست بطريقة ما أنها يمكن أن تموت قبل زوجها أرغمت نفسها بالقوة على الامتناع عن تلك العادة الغريبة في ملاحقة أوراق النعي.

ياه ما أسخفها حين تشعر باليقين أنه سيموت قريباً وسترث الكثير منه وستسكن في الفيلا الفخمة وحدها، كانت تفهم العيش أنه

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

كـــثافة وامتلاء، أما الحياة مع العجوز ففراغ، أيامها معه أشبه باسفنجة ممتلئة بالتجاويف الفارغة وفي أوقات متباعدة كان يصحبها لزيارة بعض أصدقائه في جيله كهول على حافة الموت مطرودين من الحياة - هكذا تحـــسهم - تحتـــضر مـــن الضجر واليأس وهي تصغي لأحاديثهم عن العمليات الجراحية التي تعرضوا لها من زرع عظم عنق الفخذ إلى زرع عدســـة داخل العين إلى تركيب سماعة في الأذن بسبب الصمم... وإذا غيروا تلك المواضيع فيتحدثون عن أصدقائهم المرحومين الذين سبقوهم إلى الدنيا الثانية! ذات يوم تجرأت وسألته إن كان يخشى الموت فأخبرها أنه يرتب لموته كما يرتب لسفرٍ ما.

لم تكن تتوقع أن تصير فظة وأنانية بعد زواجها منه، كانت تنتقي حـــبات الفاكهة الطازجة وتأكلها تاركة له الفاكهة الذابلة مثله وحين يوصيها لتشتري له غرضاً ما تشتري دوماً أرخص الأنواع كأنها تقول لنفسها: يكفيه هذا النوع الرخيص وهو على بعد خطوات من الموت، لم يكـــن يعترض على سلوكها لأنه أساساً لا ينتبه لشيء، رجل ماتت رغباته حتى شهوته الجنسية ذابلة، إنها ذيول رغبة متبقية من أيام الشباب بقايا مشاعر خبرها ذات يوم وعاشها.

ففي قلب اشتهاؤه لها يحس بتعب يكفيه من جسدها قبلات يابسة ومداعـــبات لا مجدية، كانت تتأمله كيف يتفرج على جسدها كما لو كـــان مـــراهقاً في تجربته الأولى، إنه يحس برهبة تجاه جسد أنثى تضج بالعافية والشهوة.

جعلها تحس كم أن الشهوة في حالتها صراع مع النفس لا يرحم، يـــزداد استعاراً كلما أرادت لجمه، قبل زواجها منه كانت قد نسيت عـــالم الـــرجل بسبب أزمات الفقر المهينة التي تنتهكها كل لحظة، كل تفكيرها كان مشغولاً بإيجاد حلول للأزمة الاقتصادية الخانقة في أسرتها،

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

لكـــن بعـــد أن تدفق المال بين يديها وبعد علاقتها مع زوجها الوهمي وجدت نفسها تفكر بالرجل

تـــتوق لـــرجل فتي تفنى بين ذراعيه، يخترقها ويملأ فراغ روحها. صارت تلجأ لحضور أفلام خلاعية لتمتع نفسها مستسلمة لكآبة المتعة الانعـــزالية مـــتأملة بعينين أسهدهما الحرمان على أجساد رجال شبان، وكم كانت تطيل الوقوف عند باب غرفته تتأمله غافياً بحقد شاعرة كم هو عبئ عليها، وفي المساء حين تقف أمام المرآة متفحصة وحدتها المثالية ماســـحة بـــشرتها بأفخم أنواع المساحيق تحدق بتبدل ملامح وجهها، ملامحها التي كانت توحي بالسلام، تبدلت فهي توحي بالانهيار النفسي يوماً بعد يوم.

لم يكـــن العجـــوز معنياً بما يحدث في روحها بل لم يخطر له هذا التساؤل أبداً! فهو يعتقد أنها مستقرة وسعيدة وما كادت تكمل عامها الـــثاني في قفـــص الـــزواج حتى بدأت تتساءل بنفاذ صبر عن مفهوم الفـــضيلة؟ ما معنى الإخلاص لرجل تجاوز عقده السابع عنين ومقرف؟ كـــم هي إنسانية الخيانة في حالتها، اقتنعت أن من واجبها تجاه نفسها البحث عن عشيق مناسب قلبت احتمالات كثيرة ودرستها جيداً، على العشيق المُختار أن يلزم السرية وألا يطمع بمالها، لكنها ارتأت أن تعدد عـــشاقها ففي ذلك أمان أكبر من الفضيحة، اصطادت عشاقها بذكاء، مـــن طالب جامعي إلى شاب في الجندية وأحياناً بعض المحامين المتدربين الذين يقصدون زوجها لاستشارته في قضايا قانونية معقدة، كان يكفي أن ترسل بعينيها شحنات من اللهفة والإثارة لصيدها حتى يتبلبل كيان الرجل وينقاد للغواية.

لم تكـــن متعـــتها مع عشاقها جنسية صافية إذ كانت تخجل من التعـــبير بعفوية عما يُمتعها بل كانت تجد متعة هائلة من مجرد ملامسة

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

واحتـــضان جسد شاب فتي له رائحة، تنبهت أن العجوز لا رائحة له، وأنـــه حـــين يطلب إليها أن تغسل قمصانه تشمها فلا تجد أية رائحة خاصـــة به، جسد لا يفرز نسغ الحياة، رجل مُطفئ، تحس حياته أشبه بآخر شحطة من سيجارة ثم رماد كلي.

لكـــنها بعـــد كـــل خيانة كانت تشعر برقة صادقة نحو زوجها العجوز، تنبهت لفظاظة عشاقها وأنانيتهم وقارنتها برقة العجوز وحنوه ولباقـــته، مكتشفة العلاقة العكسية بين الرأفة والحنان من جهة والقدرة الجنسية من جهة ثانية.

ربما يضطر الرجل الفاقد للقدرة الجنسية أن يصير أكثر حناناً مع المـــرأة كنوع من التعويض أو الاعتذار لها عن عجزه، لم تكن علاقتها العابـــرة تسعدها ولا تشعرها بالإشباع الجنسي المرتبط لديها بالإشباع العاطفي، كم كان قاسياً ومُهيناً أن تتعرى بين ذراعي شاب لا تعني له ســـوى وعاء لإفراغ شهوته ولا يعني لها سوى وسيلة هروب ولإبعاد شبح الموت عن تفكيرها، مشكلة العيش مع العجوز أنها صارت دائمة الـــتفكير بالموت، إذ تحسه يتأبط ذراع الموت في كل حركة يقوم بها، فإذا تأخر قليلاً في الاستيقاظ تعتقد أنه مات. إنه رجل بلا مستقبل لأنه مجرد ماضي، كم كانت تُدهش حين يحدثها عن مشاريع سيقوم بها بعد عـــام مثلاً.. تطل من عينيها نظرة تعني: هل تضمن أنك ستعيش حتى السنة القادمة؟!.. تدهشها غريزة الحياة فالإنسان مهما تقدم به العمر لا يـــرى الحـــياة مؤقتة بل أبدية. قمة نشاط العجوز حين يطلب إليها أن يتمشيا قرب البحر يقبض على ساعدها بقوة خشية السقوط، في البداية اعـــتقدت أنـــه يمسكها بتلك الطريقة لأنه يحبها لكنه حدثها عن فزعه الكـــبير مـــن كسور الشيخوخة. وأحياناً يتعكز على عصا فتشعر كم يـــضج كيانها بالرفض والألم، كانت تمشي بجواره تنصت لأحاديثهما

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

الذابلة فخيالها لا يكف عن فرز صور تعذبها بأنها تتركه وحيداً مع عصا شيخوخته وتنطلق راكضة بقوة حتى خط المدى حيث يتعانق البحر مع السماء في تلك القبلة الخُلّبية الساحرة.

في لحظـــات كثيرة كانت تتفرج على صور شبابه وتحاول بطاقة خـــيالها عيش تجاربه العاطفية والجنسية، ياه كان جميلاً فيما مضى.... تحـــولت نقمتها الخاصة إلى نقمة عامة على المجتمع، كيف لا يستنكر الناس زواج الكهول؟!.. أي رضى نفسي وقبح وانتهاك لقدسية العلاقة بـــين المـــرأة والرجل حين تتزوج شابة عجوزاً؟! أين ضمير الناس؟ إن ذلك أشد قبحاً من الزنى! لكنه شرعي! عجباً كيف يكون شرعياً!!

لم تنتبه له واقفاً قبالتها بعباءته الشفافة التي تشف عن جسده الذي يـــثير غثـــيانها يطلب إليها أن ترافقه إلى غرفته وتتمدد بجانبه قليلاً حتى يغفو.

ردت علـــى كلامـــه بابتسامة مسمومة وعدته أنها ستلحقه بعد لحظات، ابتلعت جرعات كبيرة من النبيذ مستمتعة بطعمه الحارق وهي تقـــول لنفسها بسخرية مريرة: خسرت نفسي بطمعي، الطمع دمرني تماماً.

مـــشت باتجـــاه غرفة العجوز وثمة يقين يهبط عليها ويحط على رأسها كخوذة من حديد، بأنها ستموت قبله.

جميلة

سمّوها جميلة لأنها انتزعت شهقات الإعجاب حين ولادتها، فوزنها عـــند الولادة كان خمسة كيلو غرامات ووجهها مدور وردي، عيناها خـــضراوان واسعتان وزغب كستنائي ناعم يكسو رأسها، تحلّق أخوتها الخمـــسة الذكـــور حولها متأملين المولودة كدمية جميلة، ابتسمت الأم شاعرة بالانتصار كونها أنجبت طفلة بهذا الجمال قالت: فلنسمها جميلة.

حـــتى عامهـــا الثالث ظلت جميلة الطفلة المدللة تتناقلها الأيدي وتـــتململ من القبلات والمداعبات، تضجر من الهدايا وترمي ربطات شـــعرها الملـــونة من النافذة بنـــزق، في منتصف عامها الثالث أصيبت جمـــيلة بالـــتهاب سحايا هدّد حياتها، أُدخلت المستشفى ورغم العناية الطبية المكثفة لم يتمكن الأطباء من سحق الجرثومة الخطيرة التي خرّبت مـــناطق حـــساسة في دماغ الطفلة، خرجت من المستشفى بلهاء تماماً واستمرت بالنمو وجعاً يؤلم أسرتها، كانت فتاة بكامل جمالها وأنوثتها وإنما بلهاء.

دخلـــتْ جميلة خانة المعاقين ونسيت أسرتها أنها كانت ذات يوم طفلـــة مـــتوقدة الذكاء، وحين قوي عودها أوكلت لها أعمال الخدمة المنـــــزلية فكانت تقضي معظم وقتها في المطبخ تساعد أمها في الطبخ، تجلـــي وتمـــسح، تغسل ثياب أخوتها الذكور وتكويها، دون أن تسمع منهم كلمة شكر، فمن يشكر بلهاء؟!!.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

وحين تزوج أخوتها كانت زوجاتهم يستعرن جميلة لتساعدهن في الأعمـــال المنـــزلية الشاقة، لم تكن تتململ أو تشعر بالظلم، فالبلاهة حمـــتها من الإحساس بالاضطهاد، كانت تعمل لساعات طويلة ويداها تـــتورمان وتتـــشققان والابتسامة التي لا معنى لها مرتسمة على وجهها الجمـــيل. الـــبلهاء الحلوة تعيش عالمها الخاص، فكل يوم عصراً وما أن تنتهـــي مـــن أعـــبائها المنـــزلية تخرج إلى الشرفة بمريلة المطبخ المبللة والمتسخة، تقف في الزاوية تنظر إلى البعيد وتخاطب أشباحها، تقاتلهم، تعـــتب علـــيهم، تذرف دموعاً سخية وهي تناجيهم، تلوح لهم بيديها تفرد ضفيرتها الطويلة وتسرّح شعرها ثم تعيد ضفرها، تعوّد الجيران على طقوس جميلة فما عادوا يولونها أي اهتمام.

في أوقـــات متـــباعدة كـــان أخـــوتها يقدمون لها هدايا مهترئة كأحاسيـــسهم، عبارة عن ثياب عتيقة لزوجاتهم، لم يخطر ببال أي من هؤلاء الأصحاء أن يشتري ثوباً جديداً لجميلة، لكن جميلة تشكرهم من قلبها الطافح بالحب للعالم كله على هداياهم , وحدها الأم أصرّت أن تهدي جميلة أسواره ذهبية كل عام، كنوع من الوقاية من غدر الأيام.

تُعامـــل جميلة كحيوان أليف، فتُعطى مكافآت بسيطة حين تجيد العمل المطلوب منها، حوّلتها الإعاقة بنظر أقرب الناس لها إلى لاشيء، وحين مرضت ذات شتاء بالتهاب في رئتها ولزمت الفراش شهراً، جن جـــنون أخـــوتها لأن آلة الخدمة تعطلّت، و لم تتحرك أحشاء أي منهم بالحب لأختهم التي يحتقرون إعاقتها، بل إن أحد أخوتها قال: لا ينقصنا إلا أن نخدم البلهاء، ووافقه الجميع على رأيه.

من حسن حظ جميلة أن بلاهتها تحميها من قسوة البشر، أكملت الـــصبية الخامسة والعشرين من عمرها وأيامها تتجرجر في الخدمة، لم تشكُ يوماً، وحين كانت تعاني من آلام في ظهرها كانت تستلقي على

الأريكة لساعات مستسلمة لأحلام يقظة غنية. كل عالمها لا يمت لعالم البشر بصلة فكل يوم تخاطب أشباحها، لم ينتبه أحد أن شاباً عابثاً كان قـــد استأجر غرفة مقابل بيت جميلة صار يترصدها، فأخذ ينتظرها كل يوم ويخاطبها بالإيماءات ذاتها ويرسل لها قبلات عبر الأثير، جمدت جميلة وهي ترى أحد أشباحها يتجسد أمامها رجلاً من لحم ودم تبلبل كيانها وعـــرفت الأرق لأول مـــرة في حـــياتها، لم تكن قادرة على التفكير فأفكارها مغشاة بالظلمات، لكن من قلب عالم البلاهة الهلامي فاضت روحها بشوق وحنين مختزنين في روحها، الحب أقوى من العقل وأكثر أصالة، الحب عفوي حتى في قلوب البلهاء.

لم يـــبال أحـــد ببلهاء الحارة المنسية، فالكل منشغل بنفسه، ولم يلحظ أي من أخوتها أن الشاب العابث أخذ يستدرج جميلة إلى غرفته ويعـــريها مـــن حيائها وبلاهتها وأساورها الذهبية، قدّمت له جسدها مُطـــيعاً مـــتوهجاً، معرّفاً إياها على ملذات لم تتوقعها أبداً ولم تعرف بوجـــودها مـــن قـــبل، كـــان شعورها نحوه أقوى من الغريزة، إنها كالمخمـــورة تتـــرنح وجداً، لم تجرّب من قبل أن يعني لها شخص كل حياتها، كيف صار زمنها ينساب بنعومة فائقة وهي معه.

صار بالإمكان ملاحظة شعاع الحب في عيني جميلة، تلقت بفرح سخرية أخوتها لأنها صارت تفرد ضفيرتها، اختفى الشاب بعد حصوله على أساور جميلة الذهبية، ولم يبال بانكشاف أمره، سينكر كل شيء صارخاً في وجوه أخوتها: من يصدق مجنونة، إنها تكذب...

لم تـــبال جميلة بالضرب الوحشي الذي تعرّضت له، كانت غائبة عـــن عذاب الجسد، تبحث هناك في تيه معتم بلا قرار عن حبيب حمل معـــه سعادة صاعقة ومباغتة عاشتها معه، إنها تنظر حائرة في آلام قلبها ولاتعرف كيف تداويها، تريد عوناً من هؤلاء الأصحاء العقلاء عساهم

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

يـــرحمون قلـــب عاشقة..... تنظر إليهم بعينين محبتين دامعتين متسائلة بنظرة خرساء: لماذا تضربونني كحيوان؟!!..

عـــادت جمـــيلة إلى عادتها في مخاطبة أشباحها كل عصر، قررت الأســـرة ألا تلبس جميلة ذهباً أبداً، وأن تمنع من مغادرة البيت.... صار صـــوت جمـــيلة مرتـــشحاً بالحزن مبللاً بالدموع وهي ترنو إلى شرفة الحبيب الخالية وتناجيه.

قد يتمكن الزمن من بلسمة آلام جميلة العاطفية، لكنها لن تدرك أبداً أنه ليس من عادة الشيطان أن يؤاسي ضحاياه.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

حب في زمن العولمة

كانت تنتظره بكامل أبهتها الروحية والجسدية، وقد أجلّت وضع القناع المغذي للبشرة حتى موعد حضوره، لتكون أكثر ما يمكن طازجة وجديدة حين تلقاه، لم تكن تعرفه إلا منذ زمن قصير معرفة سطحية لا أكثر، كانا مثقلين بخيبات التجارب الحياتية – العاطفية خاصة – تلك الخبرات التي تعطي الإنسان موهبة فهم أعماق الآخر من مجرد النظر في عينـــيه. كانت تشعر أنه مضى دهر لم تحب رجلاً، ولم يلمسها أحد، تلمس جلدها فتحسه جافاً كالقش، لم تعد تطيق أن يظل الرجل مجرد حلـــم، إنها تريده واقعاً. صار شغفها بالرجل واعياً ومتعمداً، وأخذت تبحث بإلحاح وإصرار عن تجربة من أجل إعطاء بهجة لحياتها، الحرمان الطـــويل أشعرها أنها تتحول لمراهقة، فهي تستثار وترتعش حين تتأمل المـــشاهد العاطفـــية في شاشة التلفاز، الحرمان صعب، هذا ما تؤكده لنفـــسها كـــل يوم مكتشفة المظاهر اللا إنسانية والقاسية للحرمان. لم تكن تجد الهمة ولا الرغبة لتعتني بأظافر يديها وقدميها والاهتمام بنظافة جـــسدها مـــن الأشعار. لسان حالها يقول: لماذا علي العناية بتفاصيل جسدي في غياب الرجل؟! لكن لأجله، لأجل شهيتها المتفتحة للحب بسببه أخضعت جسدها لعناية قاسية كما لو أنها تستعد لحفلة عرسها.

أقـــرّت بيـــنها وبين نفسها أن وجود الرجل يعطيها موجات من المشاعر الدافئة التي لا تنضب، لكنها تجرأت واعترفت لنفسها أيضاً أن

غايـــتها اللذة ففي غياب الحب يستسلم الإنسان للملذات مضطراً، لم تخجـــل مـــن تلك الحقيقة فقد فُطرت على ازدراء أي خداع لنفسها، كانت تحس بقوتها الذاتية وتنتشي باستقلاليتها، لم تعد ضحية الرغبات الذكورية، لم تعد صيداً، بل صارت صانعة مغامراتها.

كانـــا يعـــرفان - كـــل على حده - أن ما يجمعهما هو هوى التجربة وليس الحب. الحب صعب في عمر النضج والخيبات، لكنه يظل مـــثيراً ومغرياً، استعدت لاستقباله، قدمت إجازة من عملها، اشترت سمكاً فاخراً كي يأكلانه مشوياً في مطعم على البحر، لبست الثياب التي تعتقد أنها تبدو فيها أكثر إثارة وأصغر سناً، وجلست مضمخة بالعطر والترقب ترشف قهوة انتظارها الفاترة.

فكـــرت بقلق حقيقي ماذا ستفعل برفقته ليومين؟! شعرت أنها في محنة حقيقية، فهذا الغريب لا يجمعها به سوى جوع الحرمان. حاولت تخفـــيف توتـــرها باللجـــوء للسخرية كعادتها، أطلقت على مغامرتها الجديـــدة: الحب في زمن العولمة. وكي تخفف موجات الاكتئاب التي بـــدأت تغـــزوها، حاولت أن تضع نفسها مكانه، سيقود سيارته أربع ســـاعات في حر تموز ليلقاها، بدت لها تلك الحقيقة مرعبة ومدهشة في آن؟! أي جنون يجرفان نفسيهما إليه؟! ما الذي يربطهما ببعضهما كي يتحمل مشقة هذا السفر! لم يتأخر عن الموعد المتوقع لوصوله، استقبلته بحفـــاوة اجـــتهدت أن تبدو طبيعية دافئة خجلاً عميقاً كاد ينفلت من عينـــيها ويفضحها. تبادلا قبلات على الوجنتين، حاولت تجاهل رائحة عـــرقه، عذرته فقد قاد سيارته أربع ساعات في الشمس، شربا القهوة وتـــبادلا أحاديـــث عامة، اكتشفت عدم وجود أي موضوع حقيقي يـــتحدثا بـــه، كان عليهما خلق مواضيع الحوار، دخن سيجارتين مع فـــنجان القهـــوة وأخبرها أنه لم ينم جيداً الليلة الماضية. استأنفا رحلة

الاكتشاف بالبحث عن محطة للوقود، كان قلقاً فعليه ملأ خزان سيارته بالبنـــــزين، لم تكن تقود سيارة، فتاها في شوارع محفورة من أجل مد خطوط للهاتف.... من سوء الحظ أن المكيف في سيارته معطّل، كان عليهما فتح النوافذ وتلقي هواءً مشبعاً بالرطوبة والغبار. أكثر ما تكرهه الرطوبة، تجعلها عصبية رغماً عنها، لكنها ألزمت نفسها بالضغط على أعـــصابها والتظاهر ببهجة زائدة... كانت تتفرج على بؤسهما كأنهما مسجونان في علبة وسط شمس حارقة وشوارع مختنقة بالغبار، حاولت إرغام نفسها على الفرح، لكن عبثاً، فداخلها مُطفئ وبخّت نفسها على ذبـــولها وبدت لها الساعات الطويلة التي تنتظرها معه ثقيلة تنبهت فجأة لـــشعور مباغت دلّها كم أن روحها جريحة، وبأنها ستعجز عن تحمل تجـــربة مفـــتعلة مع رجل تشعر نحوه بالذنب لأنها شجعته على زيارتها ليخوضا مغامرة عاطفية هوجاء، تمنت لو يحدث اصطدام وتتحطم سيارته كـــي يعفيهما القدر من تلك التمثيلية، فكرت كم أن الحب يظل دوماً موضع شك أما الكره فمؤكد دوماً. الحب زائف أما الكره فحقيقي.

"حـــب في زمن العولمة" هذا ما ينجح ذهنها بابتداعه، أخبرته أنها استأجرت شاليه ليلتقيا وبأن الوقت لم يسمح لها بتفحص الشاليه بدقة، إذ أنها تخشى من نظرات الفضوليين، أثرّ فيها لطفه، رغم إحساسها أنه يجاهـــد ليـــبدو طبيعياً، وليفهمها أنه سعيد، لكنها كانت متأكدة أنه يحـــدث نفـــسه علـــى النحو التالي: هل تستأهل تلك المرأة الغريبة أن أستيقظ باكراً وأقود سيارتي أربع ساعات متواصلة لأراها.

أحست بخيبة لأنه لم يُطرِ على شكلها أبداً، لماذا لا يقول لها ولو من بـــاب المجاملة تبدين جذابة وجميلة، استسخفت نفسها كونها تنتظر غزلاً، دلـــته علـــى طريق الشاليه المعزولة والقريبة من البحر، وحين دخلاها كانا مـــنهارين مـــن الحر والرطوبة وقد التصقت ثيابهما بجسديهما غزتها رائحة

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

عرقه أكثر فأكثر، قماش قميصه يرسم دائرتين رطبتين كبيرتين تحت إبطيه، لكـــن العتمة النسبية أدخلت نوعاً من الهدوء إلى روحها المضطربة، أحاط خـــصرها بذراعيه وتبادلا قبلات فماً لفم، قبلات يفرضها الموقف وليست نابعـــة مـــن الشوق، الشيء الوحيد الذي كانت تتمناه بكل جوارحها أن تتحـــرر مـــن حمّالـــة نهديها تحديداً لأنها ملتصقة بشدة بنهديها، فكرت بـــسخرية أليمة أن الأشهر الطويلة الطويلة التي قضتها تتحرق للقاء رجل تـــنجذب إلـــيه تُكلـــل بالكآبة الخانقة، كانت لا تجرؤ أن تعبر عن عمق خيبتها، فتركت مشاعرها تنبثق من عينيها، إنها هنا في هذه الشاليه البائسة مع رجل قاد سيارته في الشمس أربع ساعات متواصلة ليلقاها من أجل لا شيء، وبدون ذرة حب!! اكتشفا طعم شفاههما، كان يمكن لمشاعرها أن تُثار، لكن رائحة عرقه المتفاقمة أحبطت شهيتها للحب، لكنها أدركت أن مـــا مـــن مفر للتراجع، بدأت شيئاً فشيئاً تفقد إحساسها بذاتها، وبدأ ألم روحهـــا ينغلق على ذاته ويعتصم في الصمت، حدثت نفسها بأن العلاقة بـــين المرأة والرجل أشبه بمأزق أحياناً، وفي بعض الحالات يجب الاستمرار في الخداع لأن التراجع مؤذٍ ومهين للطرفين.

تحسست جذعه الضخم مكتشفة كم أن السمنة منفّرة. بدت لها راحـــة يدها صغيرة وهي تنـــزلق بين ثنيات لحمه، ياه كيف انطفأت شـــهوتها له كلياً، من أين غزاها كل هذا الموات؟ وأين تلك الأشواق الملتهبة التي نمت بينهما عبر سماعة الهاتف؟!..

أي قـــدر ســـاخر يعـــبث بهما؟ ما بها مثل امرأة مات جهازها العـــصبـــي، كـــان يتحـــسس بـــراحتيه الضخمتين نهديها وخصرها ومؤخـــرتها دون أن تحرك فيها يديه أي شعور ووجدت أن من واجبها مداعبة جذعه الضخم الذي تنضغط فيه، كانت تشعر أنها جماد، وتحت قمـــة هـــرم كرشه قاد يدها إلى عضوه المنتصب، فكرت أنه يجب أن

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

يكـــون متناســـباً مع ضخامة جذعه، أضحكتها تلك الفكرة، فانفلتت منها ضحكة عفوية، اعتقدَ أنها تضحك كي تداري خجلها، بدا منتشياً وهو يثبت لها قدرته الجنسية، ولا تعرف لماذا أحست بضرورة اللجوء لـــشيء من الدعابة فالوضع بينهما معقد وأصبح بالنسبة لها لا يطاق، هناك شيء خانق بينهما وحولهما، لا تعرف تحديد ماهيته، قالت له أنها تقرأ ألف ليلة وليلة وبأن عضو الرجل يُسمى مولانا، ضحك مكرراً ما قالـــته، تعمـــدت أن يتغازلا تحت مروحة سقفية وحيدة صدئة ومتعبة لكثـــرة ما شهدت من خيبات العشاق، تحرك الهواء قليلاً حولهما لكن الرطوبة غير محتملة، أثاث الشاليه قديم ومخلّع وتفوح منه رائحة رطوبة عفـــنة وقديمة، قادها إلى غرفة بائسة ليتمددا على فراش بلا شر اشف، فرشـــة عتيقة عارية، خلع قميصه فخنقتها رائحة عرقه وأصابتها بغثيان حـــاد، تمنت لو تملك الجرأة وتطلب إليه أن يستحم، حسدت العشاق والأزواج الذين تربطهم الحميمية، مع هذا الغريب كيف ستطلب إليه أن يـــستحم؟ لكن عجباً ألا تزعجه رائحة جسده؟! تابع نـــزع ثيابه وجوربيه وهي تتفرج عليه شاعرةً أنها تهبط أكثر فأكثر في قاع الإحباط وبـــدأ إحـــساسها بالورطة يتعاظم، كلاهما متورط، ياه كم تتمنى لو يحـــدث أي ظـــرف خارجي ليوقف تلك المهزلة المؤلمة بينهما، أبدت انـــــزعاجها من الضوء، كم هو صعب أن يتعرى رجل وامرأة للمرة الأولى تحـــت النور، قالت له: ليتنا التقينا في الظلام، أحسّا بالخجل من وضاعة المكان، انتبهت أن هناك سلسلة من البقع الوردية تغطي كرشه وخاصـــرتيه، بحلقت بها محاولة اكتشاف ماهيتها، سألته عن تلك الـــبقع فقال أنها نوع من الفطر اسمه النخالية المبرقشة، تقززت وانغلقت داخل نفسها كما لو أنها ترغب أن تسكن قوقعة، ودت لو تصرخ به: لكن الفطر يعدي وقد أصاب بالعدوى؟!

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

لكـــنها كـــبحت صـــراخ احتجاجها، فعليها أن تتابع هذا اللقاء الجهنمي حتى لو كان صديقها مصاباً بالجذام، كان جسده مواراباً وفوق جـــسدها بقلـــيل، وتفرجت على نفسها كالمشلولة وهي مضغوطة إلى كرشـــه الرطب الممتلئ ببقع الفطر، ووجها على مستوى زنده الضخم الـــرطب وجوف إبطه الذي ينفث رائحة تجعلها تدوخ من الغثيان، كان وضعها بائساً لدرجة أحست أن التفكير بأية محاولة للنجاة لن ينفع.

همـــس بأذنها: لا زلتِ تحافظين على شبابك، ذكرتها تلك العبارة بعمرها، بشبابها في طريقه للأفول، أحست بالأذى من كلامه هو الذي افتـــرض أنه سيبهجها، لم تستطع أن تطريه بكلمة فبدانته مُشوِهة فعلاً بكـــتل الـــشحم المرصوصة على كتفيه وصدره وخصره، كان يتنفس بصعوبة لأنه مدمن على التدخين ولوهلة أحسته سيموت بين ذراعيها، كانـــا مُحاصـــرين في حتمية جنس كئيب باهت وميت، و لم يملك أي مـــنهما شـــجاعة فك اشتباك هذين الجسدين الغريبين والهروب، كان محكوماً بها وهي محكومة به، لم يعد جسده يعني لها شيئاً إنه كتلة صماء لا تـــنقل لها أي إحساس، وهي متأكدة أنها لا تبث فيه إحساساً، وبدا لها عريهما تافهاً وليس فيه أية إثارة.

صـــار انهـــيارها النفسي متسارعاً لدرجة خشيت أن تفقد الحد الأدنى مـــن اللباقة واللطف معه اللازمان لمعاملته كضيف على الأقل، تـــزايد دَبـــق جسديهما، كم كانت تحلم بالاستحمام، التصق شعرها برأسها من التعرق، أما جسده فكان يبث روائح خانقة تزداد كثافة في فـــضاء الغرفة، حتى كادت تُصاب بالإغماء، نجحت أخيراً في التملص مـــن هـــذا العـــري المهـــين واقترحت أن يذهبا لتناول الغداء، ارتديا ملابـــسهما وخرجا إلى حر الظهيرة، لم ترحمهما الشمس التي كان بها فجـــور وغضب، وكم كانا مرهقين وهما يتبادلان ابتسامات المجاملة في

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

مطعـــم شـــعبـــي بجوار البحر، قدّم لهما سمكاً مشوياً محفوفاً بالذباب وصحن خضار مرتب بطريقة تدل على قلة الذوق.

القـــذارة تحوم حول المكان، وغير بعيد عنهما مجموعة من النسوة يسبحن بكامل ثيابهن ورؤوسهن مغطاة، كانت تخجل أن تتثاءب أو أن تسمح لمشاعرها الحقيقية برسم ملامحها، لم يكونا سوى عاشقين زائفين وبائسين، رغبا بالمتعة فحصدا الكآبة، بعد الغداء كان لزاماً عليهما أن يعـــودا للشاليه ليستأنفا غراماً زائفاً كانا قد بد آه، عادا للتعري وهي تقول ساخرة من نفسها: عدنا للمهزلة!! اقترحت عليه أن يضع الفرشة البائـــسة على الأرض تحت المروحة السقفية الوحيدة، فرز خيالها صوراً مخـــيفة لرجال شرطة يدهمون المكان ويضبطانهما بالجرم، إنهما عاهران بنظر القانون، بدقة أكبر، وحدها العاهرة، أما الرجل فلا يوصف بتلك الـــصفة، قـــرأت ذات يوم أنه يمكن لرجل يضاجع عاهرة أن يسلمها بنفسه لقسم مكافحة الدعارة!!

كـــان التعب قد هدّها تماماً، لم تكن بحاجة سوى للاستحمام بالماء الفاتر والنوم لكنها متورطة مع هذا الجسد الهائل لإكمال مسرحية بدأت ولـــن يسمح لها القدر ببترها، استأنفا العناق واللمسات، وهي تشعر كم يـــزداد جسدها مواتاً، وبدأ التعب يذله، فانطفأت قدرته الجنسية، وغدا عنيـــناً، أحست كم يؤلمه ويحرجه هذا الوضع، وكم يبذل جهوداً كبيرة لـــيداري خجله وارتباكه، أوهمته أنها غير متأثرة بانطفائه، طلب إليها أن تـــساعده وأن تبذل جهداً ليستعيد قدرته الاقتحامية، لكن جسده صار يوغل في عنانته، فكرت كم هو مُهين موقف رجل في وضعه ولا تعرف لمـــاذا أحـــست بالشماتة منه ثم من كل الرجال، أحست بالرضى كون الأنثـــى طرف متلقٍ في الجنس، حاولت أن تؤاسيه فقالت له بأن التعب ونقص النوم والحر جعلوه متعباً، وافقها للحال على كلامها.

طلبت إليه أن يذهبا إلى مقهى جميل ليشربا القهوة، انطلقا مجدداً في رحلـــة تسكعهما المنهكة والمدمرة للأعصاب والتي يعجز أي منهما عـــن إيقافهـــا، ما عادت تطيق الحر، الرطوبة والحر يدخلانها في حالة عصبية يتطلب لجمها جهداً جباراً، وجهها يرسم الابتسامة البلهاء ذاتها، تجولا في طرق ريفية، وبدأت الشمس أخيراً تقارب المغيب، أحست أنها تتـــنفس الصعداء فالوقت يمر عادا إلى الشاليه متسللين كلصين وبإعياء أقرب لليأس تعريا، كم أحست أن واجبها ثقيل ثقيل تجاه هذا الضيف الغريب الذي عليها أن تعيره جسدها، شعرت بفرح مبطن بالخيبة وهي تتفـــرج علـــى جسده موغلاً في عنانته، لا تعرف لماذا شعرت بسعادة خبيـــثة وهي تراقب جسد المارد يلهث ويجاهد ليثبت فحولته، سخرت مـــنه وهي تردد بصمت وبلهجة غنائية لا حياة لمن تنادي، لا حياة لمن تنادي. كان نظرها معلقاً بأجنحة المروحة السقفية التي أحستها شاهدة على خيبتهما، تحول صوت تنفسه لما يشبه الدوي يملأ الفراغ حولهما.

خافـــت عليه حقاً من الانهيار، وحين طلبت إليه أن يوصلها إلى منـــــزلها لم يحـــاول استبقاءها، بل أحست براحته وانتظاره المتلهف لذهابها فلتتركه يلملم تعبه وهزيمته.

كانـــت بحالة انهيار نفسي وجسدي حين صعدت الدرج مستندة على الدرابزين لأنها أحست أن قواها نـــزّت منها كلياً ورغم إنهاكها، أجبرت نفسها على الاغتسال كي تطرد رائحته، ابتلعت حبة منومة، ثم حـــبة مهدئـــة، وبدأت تلاويح الفجر تتسلل مداعبة أهدابها المُسهدة، كانت بحالة مخيفة من التوتر وهي تحاول طرد صور تنتهكها، صور لقاء دمّـــرها، أرادته لقاء حب وفرح ونشوة... لكنه كان كارثياً. ترى هل صار الحب انتهاكاً في هذا الزمن؟!

أهذا شكل الحب في عصر العولمة؟!.

ظل أسود حي

كانـــت تـــرتعش كعصفور مبتل بالمطر، حين طلب إليها طبيب النـــسائية بـــصوت ميت وقطعي أن تخلع سروالها وتتمدد على سرير الفحص، أحست أنها تغوص في برميل من الهيولى وهي تسمع الطبيب ينطق بهذه البساطة العارية كلمة سروال. وفجأة ارتعش فمها بخلجات قوية جعلته يتقوس بشدة باتجاه الأسفل، ودت لو تبكي، لكنها زجرت نفـــسها فليس الآن وقت البكاء. وصرخ صوت ملتاع في داخلها: بل هـــذا وقت البكاء، البكاء الذي لا ينتهي إلا بالقبر، البكاء الممتد عبر التاريخ، بل بكاء التاريخ نفسه، ورغم أزمتها المتكثفة في تلك اللحظة، فإنهـــا لم تـــتمالك نفسها من الإعجاب بتعبير بكاء التاريخ نفسه من خلال عينيها.

أمرها أن تخلع سروالها فيما هو ينتظر في غرفة مكتبه، وعليها أن تـــذعن، تـــنهدت وهي تقول: يا إلهي أية ورطة فظيعة هذه؟ وضعت حقيبـــتها على كرسي جانبـــي قرب سرير الفحص، وهمت أن ترفع تنورتها، لكن صوراً مباغتة صفعتها وجعلت وجنتيها تلتهبان. تذكرت اللقـــاء المحمـــوم مع حبيبها، كان يوماً حاراً في أواخر تموز وقد تواعدا على اللقاء سراً في بيت أخيه المتزوج حديثاً، سيكون الأخ وزوجته في الوظـــيفة، وهي ستهرب من المدرسة لتلقاه، سيرشفان الحب المختزن طـــويلاً في قلبـــيهما المتورمين من الحصر، ليعود هو بعد ساعات إلى

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

خدمته الإلزامية، وترجع هي إلى تحنيط أسرتها الأبدي، لم تكن تعرف أن الأمور ستسير كما سارت، وهي في الحقيقة لا تعرف كيف تتطور عملـــية لقاء رجل بامرأة، كانت ثقافتها الجنسية ضعيفة، حتى تشريح جسدها ما كانت تعرفه بدقة، فرت من المدرسة قبل ساعتين من انتهاء الدوام متعللة بآلام بطنية، اعتقدت المديرة أنها آلام الطمث، كان قلبها يقـــرع كالطـــبل وهي تصعد درج الشقة المحرمة، وهناك كان ينتظرها بـــشوق مـــضاعف، ضاعفه إهانات الجندية والحرمان الطويل. لمست جبهـــتها لتـــتأكد أنها ليست صريعة حمى مباغتة. كان الدم يتدفق من أذنـــيها ووجنتيها، وكانت راحتاها ساخنتين كرغيفين، احتضنها، لم تمانع كما توقعت، أغمضت عينيها وهي تغيب شيئاً فشيئاً عن عالمها في المدرســـة والبـــيت. فقدان ذاكرة كلي، شعور وحيد طاغ جمعها به، توحدت به واستسلمت لمتعة تبادل الأنفاس، وحين تمددا على السرير، همـــت أن تقوم، مانعت، لكنها كانت تشعر أنها مصابة بدوار، جذبها من يدها، وأعاد التحامها به، ورفع تنورتها و.....

صفعتها هذه الصور وهي تهم أن تنفذ أوامر الطبيب، تجمد نظرها علـــى ســـرير الفحص، لماذا هو قصير جداً؟ وما هاتان الرافعتان على جانبـــيه؟ دهـــشت أنه بالكاد يتسع لطفل في الخامسة من عمره، كان شرشفاً أبيض مطوياً بأناقة ينتظرها فوق السرير، سعت صوت الطبيب جافاً يسأل: هل أنت جاهزة و لم تعرف أن الصوت الذي سمعته مرتجفاً يجـــيب: لحظة سأكون جاهزة، كان صادراً عن حنجرتها، إذا عليها أن تـــذعن لمـــا يأمر به الطبيب. تذكرت منذ سنتين يوم أصيبت بالتهاب قـــصبات حاد، كيف ذابت خجلاً والطبيب يكشف عن نهديها ويضع سماعـــته المعدنـــية الـــباردة على صدرها، الآن عليها أن تخلع سروالها. أغمضت عينيها ما أقسى هذه اللحظة، جلست على حافة السرير بعد

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

أن كورت السروال في يدها، لم تعرف كيف ستتمدد، أجهدت نفسها لتقول وكأنها تلقي نفسها من شفير هاوية إلى العدم: أنا جاهزة.

دخـــل الطبـــيب، أمـــرها ببرود أن تتسطح، وأن تغطي بطنها بالشرشف وبأن تباعد ما بين فخذيها قدر استطاعتها...

نـــدت عنها صرخة آه لا إرادية وقوية، قال آمراً: هيا لا تعطليني فالعيادة تغص بالزبائن.

تـــساءلت: أيـــن هو، وتخيلته في الخارج ينتظرها، ليته يكون إلى جانـــبها لتتشجع. لكن كيف سيراها في هذا الوضع المهين؟ تسطحت وغطـــت بطنها وساقيها بالشرشف. تخيلت شفرة مقصلة لامعة وحادة تهـــوى عليها وتريحها من الحياة وللحظة شع وجهها بابتسامة حقيقية وعذبة، كانت تبتسم للموت. وتساءلت بعذوبة: أوه من قال أن الموت بـــشع ومخـــيف؟ اقـــشعر بدنها وهي تحس براحتي الطبيب تباعد بين فخذيها، كتمت صراخاً وعويلاً في داخلها كما تعودت أن تكتم أشياء وأشـــياء. أمرها بصوت قاس: استرخي، أخذت أسنانها تصطك بقوة مـــصدرة صـــوتاً كالقـــرقعة. قال لها الطبيب: استرخي لن أتمكن من فحـــصك هكـــذا، قالت وسط قرقعة اصطكاك أسنانها: لا أعرف، لا أعرف.

رأتـــه يلبس كفا من النايلون ويدهن سبابته والوسطى بالفازلين، شـــهقت وأغمـــضت عينيها هاربة من جسدها، وهي تحس الإصبعين تسبران أعماقها.

صرخ: كفى، لا تتشنجي، قلت لك استرخي.

قالـــت ودموعها تتشكل ككرات من زجاج هش وتنهمر أفقية على صدغيها:

- لا أعرف، لا أعرف.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

رد ساخطاً: كل شيء لا تعرفينه، كيف عرفت أشياء أخرى؟

ابتلعت الإهانة. وجدت نفسها تتوسل إليه: أرجوك كفى.

كانت راحته الأخرى تضغط أسفل بطنها عند خط شعر العانة، كانـــت روحها تئن قائلة: يا للعار، يا للعار، ولا تعرف كيف قفزت جملـــة إلى ذهنها لعلها قرأها أو سمعتها: خمس دقائق لذة، تسعة أشهر ألم.

أيـــن قـــرأت أو سمعت هذه الجملة، وأعملت ذهنها في التذكير هاربة من طريقة صلبها الاستثنائية، وتخيلت عابثة أن النساء يصلبن بهذه الطـــريقة، على سرير وهن يباعدن بين فخذيهن، وهللت لفكرتها وهي تؤكد لنفسها: نعم هكذا تصلب النساء.

أخـــرج إصبعيه من داخلها أخيراً، بعد زمن بدا لها دهراً، أخذت رجفـــة حـــادة تخض جسدها، سألها: ما بك، حسناً قومي، لقد انتهى الفحص.

وكأنه استدرك، قال: مهلاً انتظري لحظة، سأفحص رحمك لحظة علـــى جهـــاز الايكو. قرب منها جهازاً له شاشة صغيرة تشبه شاشة الـــتلفاز، وعصر هلاماً أسفل بطنها ضغط بقلم بلاستيكي فوق الهلام، وهـــو يتابع خطوطاً بيضاء وسوداء متراقصة على الشاشة، وأشار إلى نقطـــة سوداء لا تزيد عن عرض إصبعين قائلاً: هذا هو الحمل، عمره ثلاثة أشهر تقريباً.

أمكن لها أن تحس بومضة خفقان حب عجيب لهذا الظل الأسود، ظـــل جعل عاطفة قوية وخام تتحرك بقوة في أعماقها، تركها وحيدة وخـــرج، بعد أن أعاد الجهاز إلى مكانه. طفت عيناها بالدموع، هذه المـــرة دمـــوع غريبة فيها حلاوة لم تعرفها من قبل، رغم طابع المرارة الـــشامل الـــذي يطبعها، قامت متيبسة وهي تشعر أنها كبرت دهراً.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

لبـــست سروالها ودموعها تتساقط بغزارة على الثياب والبلاط. همست لنفسها بحب: في أحشائي جنين، رأيته، عاينته، أحببته كما لم أحب من قبل، أتراها اكتشفت مشاعر الأمومة في تلك اللحظة،

لم تـــستطع الخروج في الحال الآن لأن عاصفة الدموع كانت في ذروتهـــا. ولعظيم دهشتها أحست بحب لا يوصف لذلك الظل الأسود الصغير الذي رأته على الشاشة، ستجهض، آه بالتأكيد، ما من مفر، لا يمكـــن أن يتـــزوجا وهـــي الطالبة القاصر، وهو الشاب الذي يشحذ مصروفه من أخيه. يجب أن يداريا الفضيحة، لكن كيف تورطا، كيف لم تصن نفسها كما علموها، وشددوا عليها، كيف، أوه اتركيني الآن أيـــتها الكلمـــة الكـــريهة القاسية. هكذا صرخت، وهي تتهرب من الجواب، بل لتجيب بعد لحظة بعبث كامل: الجواب هكذا، هكذا، ما كانـــت تعـــرف شـــيئاً عن فيزيولوجيا جسدها، و لم تسمع عن أيام الإخـــصاب مـــن قبل... وما قيمة أن تعرف، حين يكون الحب لصاً يتربص فرصة للسرقة.

غـــسلت وجهها، وأحست أن الطبيب زود غرفة الفحص بمغسلة كـــي تغسل النساء دموعهن بعد الفحص. خرجت إليه، كان ينتظرها قلقـــاً في مكـــتب الطبيب، جلست إلى جواره دون أن يتبادلا نظرة، أحـــست كم هو مرتبك وخائف، قال الطبيب: أنت حامل في شهرك الثالث.

وسمعـــت صـــوته واهناً: العملية يا دكتور، أقصد الإجهاض.... واختفى صوته.

رد الطبـــيب: العملـــية أجـــريها في عيادتي خارج أوقات الدوام الرسمية.

سأل الشاب: والمبلغ...

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

رد الطبيب بثقة: خمسة آلاف ليرة.

شهقت وهي ترد: خمسة آلاف ليرة.

خـــبط الطبيب يديه على الطاولة منـــزعجاً: والله هذه تسعيرتي، أقصدي غيري لو أحببت...

أحست بسخريته اللاذعة وعدم احترامه لها، تدخل الشاب وقال بصوت مرتجف:

- عرفت من صديق لي أن طبيباً أجرى إجهاضا لزوجته، وطلب ألف ليرة، لا تؤاخذني، لكن...

قاطعه الطبيب ضاحكاً: آه حقاً، لكأنك اكتشفت لغزاً، يا أخي تسعيرة إجهاض المتزوجة ألفي ليرة والعازبة خمسة آلاف...

بحلقت بالطبيب مندهشة وتساءلت: وما الفرق؟.

رد ســـاخراً: الفـــرق، ثمـــن الفضيحة، حمل المتزوجة لا يعتبر عاراً...

كانت مذهولة، أتراه يعلن بكل صفاقة أنه يستغل أزمتها، تخيلت أنهـــا ستعطي حبيبها خاتمها الوحيد. حاولت أن تقدر ثمنه، وتساءلت: من أين سيؤمن المال؟ وماذا سيبيعان وهما لا يملكان سوى حب جارف قادهمـــا إلى عـــوالمه المحرمة، وعادت تفكر بذاك الظل الصغير الأسود، وعـــاد قلـــبها يخفـــق بحب عجيب، وندت عنها صرخة خرساء وهي تتساءل: كيف سأقتل ابني؟!

وتخـــيلت صورة طفل بعمر سنة، خدوده وردية، يشرب الحليب، تتـــشممه، تضمه، يا الهي كيف صارت أما، وتحب بلا حدود. حب يغمرها ويشكلها امرأة جديدة، ولكن الفضيحة والعار.

وسمعـــت صوت الشاب يسأل: أرجوك يا دكتور، ألا يمكن أن تراعينا قليلاً.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

قاطعه الطبيب بلهجة قطيعة: آسف، لا تساومني حول أجرتي، لا تنسى أنني أخلصك من ورطة كبيرة.

اتفقـــا أن تجرى العملية مساءً بعد انتهاء الدوام الرسمي للطبيب، نظر إليها الطبيب وقال: في الحقيقة هناك مشكلة بسيطة.

سألت باستغراب: مشكلة!

قال الطبيب: في الحقيقة وضع رحمك شاذ قليلاً، أقصد أنه منقلب للخلف.

سأل الشاب قلقاً: تقصد العملية تصير خطيرة.

رد الطبيب: لا، العملية بحد ذاتها ليست خطيرة، إنما تجريف رحم مقلوب إلى الخلف، صعب، قد يعرضنا لمشاكل.

قالت وهي تحس أنها تسمع لغة لا تفهمها: مشاكل، مثل ماذا؟.

ابتـــسم الطبـــيب: أوه لا تقلقي، إن شاء الله، كل شيء سيمر بسلام.

قـــال الطبيب معلقاً: لا تخافي، أحياناً قلع ضرس يعرض لمشاكل خطيرة، إنما لا يعني هذا أن يتوجس الإنسان شراً من قلع الضرس.

انهمـــرت دمـــوعها وهي تستغيث وتريد لو تقول، إن الذي في أحـــشائها يغمرها بالحب، ليس ضرساً ملتهباً ولا تالفاً، أطرقت هاربة من وجه الطبيب ووجه الحبيب، أطرقت في الظل الأسود والصغير الذي رأته على الشاشة، يخفق، إنه حي، في أعماقها، في قلبها، وسيجعلها أماً فيما لو بقي، إنها تحبه، تحبه أكثر من أي شيء، وفي ومضة عين زارت كـــل محلات الألعاب، وكل محلات ألبسة الأطفال، وأمكنها أن تسمع صـــوت ضحكات الأطفال، وبكائهم، أمكنها أن تشم رائحة الحليب والياننـــسون وأن تـــراقب بعين خيالها الخطوات الأولى للأطفال، آه أية مجرفة ستسلخ الصغير من أحشائها، ودت لو تسأل الطبيب:

- من أعطاك المجرفة يا دكتور؟

وصـــور لها خيالها أن المجتمع بأكمله رجالاً ونساء، ينظرون إليها بقسوة وشفاههم مطبقة، وقد شبكوا أيديهم خلف ظهورهم، وفجأة، ينفك اشتباك الأيدي، ويمدون مجرفات معدنية بحواف كليلة إلى الطبيب ويقولون: خلصنا من العار، من مشروع الطفل في رحم هذه الخاطئة، هيا، اعمل في الظلام....

كانت تبحلق في الفراغ أمامها، وتجد كل شيء مقلوباً كرحمها، أخذ قلبها يطرق بعنف في صدرها، صاعداً إلى أذنيها ليجعلهما تطنان بـــتدفق النبـــضات، مموهة صوت الشاب الذي كان يخرج كل ما في جيوبه ليدفع للطبيب الدفعة الأولى، وليرهن ساعته، وسلسلة عنقه التي تحمـــل صـــورة بـــرج الحمل، ويقدمها لخادم الإنسانية، حامل المجرفة المعدنية.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

يوم في حياة ممرضة

حين استيقظت أميرة مذعورة كعادتها من صوت المنبه العالي الذي لم تستطع أن تتآلف معه، نزعت عنها الغطاء وهي لا تزال مغمضة العينين وقامت منكمشة من برد كانون وامتدت يدها حيث كنزتها ولبستها فوق بيجامتها الرجالية السميكة، ثم أكملت ارتداء ملابسها وعيناها مغمضتان، كانت لا تزال أسيرة كابوس مزعج وعادت لتنحني فوق الفراش وتقبل صغيرها الذي أكمل أشهره الخمسة منذ يومين، كان الظلام يلف الغرفة والكون، وحين أزاحت الستارة الجرداء عن النافذة الوحيدة في بيتها، كانت النجوم لا تزال تلتمع بضوء شاحب بعيد، ونظرت أميرة إلى رؤوس الأشجار القاتمة تهزها الريح دون رحمة والأغصان اليابسة العارية تقاوم وبعضها يتكسر. وعاد الكابوس ينفرد على مساحة رؤيتها الضبابية واضحاً حياً كأنه حدث واقعياً... لم تكن تعرف أنها حفظت شكل المحقق بهذا الوضوح وأن ذاكرتها التقطت صورته وطريقته في الكلام ولهجته حتى أنها ميزت الصعوبة الخفيفة لديه في نطق حرف الراء.

وحين استدعاها لتدلي بأقوالها في التهمة الموجهة ضد زوجها - التهريب- صُعقت، لكنها تمكنت من المحافظة على هدوئها. ونجح المحقق في نقل قناعته إليها وبأنه متأكد أن زوجها مهرب. وسألها بصوته الواثق: منذ متى يعمل بالتهريب؟

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ورددت بذهول: التهريب؟

- أجل، ومن مصلحتكما أن تكوني صريحة.

ردت بـــصدق وهـــي شاردة: أن لا أعرف شيئاً عن الموضوع صدقني.

قـــال وهـــو يركـــز نظراته على صفحة وجهها: لا تظني أنك تـــساعدين زوجـــك بالتـــستر عليه، يجب أن تفهمي أن قول الحقيقة لمـــصلحتك ومـــصلحة أسرتك، إن الكذب والمراوغة سينعكسان سلباً على المتهم.

وكـــررت أقـــوالها: أحلف لك بالله وبابني الوحيد أني لا أعرف شيئاً، بل أؤكد لك أن زوجي يستحيل أن يكون مهرباً.

وضحك مستخفاً بسذاجتها وقال: أراك متأكدة، ألأنه زوجك؟

وتجـــرأت وقالت بحدة: يا سيدي نحن فقراء، فقراء، صدقني منذ زواجـــنا أي مـــنذ ثلاث سنوات لم يشتر حذاء جديداً، أصلح حذاءه مرتين، فكيف يكون مهرباً؟!...

سقطت دموعها رغما عنها وهي تراقب ضوء النجوم الذي أخذ يبتعد ويبهت، كانت لا تزال أسيرة جو الكابوس، فقد حلمت بالمحقق يحـــدثها حديثاً لا تذكره، ثم فتح الباب ودخل زوجها وانتابها إحساس بالرعب من منظره، صحيح لم يتغير فيه شيء ولا يبدو عليه أثر ضرب أو تعـــذيب وثيابه نظيفة ومرتبة، لكن نظرته أخافتها، إنها تشبه نظرات المجـــانين وذاكرتها تحتفظ بصور العديد من المجانين الهائمين في الشوارع وكلهم يتميزون بتلك النظرة الزائغة والمضطربة والغريبة، آه ما به، لماذا تـــشع نظرات الجنون في عينيه، ثم نظرت إلى قدميه، إلى حذائه الوحيد فـــضحك زوجها وخلع حذاءه، وارتعبت وهي ترى قدميه بلا أصابع وصرخت صرخة خرساء، عندما رن المنبه معلناً وقت استيقاظها...

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

أغلقت الستارة وهي تقول متشائمة من حلمها: عسى أن يمر هذا اليوم على خير، وحدثها قلبها أن شيئاً سيئاً قد يحصل، مشطت شعرها على عجل وربطته في ضفيرة واحدة وارتدت معطفها الأبدي ووضعت شال الصوف المزهر على رأسها بطريقة تخفي الثقب الكبير الذي أحدثه الفـــأر في السنة الماضية، واتجهت إلى الصغير قبلت وجنته الطرية، آه يا حبيبـــي قالتها بكل جوارحها، إنه دافئ ونائم، ملاك صغير مرتاح.

حملته، فتململ قليلاً وتقلص وجهه الطفولي مؤذناً بالبكاء، لكنها حدثته بصوت دافئ، لا عليك يا حبيبـــي سأدفئك جيداً، وألبسته قبعة صـــوفية ولفته بحرامين صوفيين وأحضرت قطعة الشاش الناعمة لتغطي وجهـــه، وحملـــت حقيبتها وضمّت الصغير إلى صدرها كأنها تتمنى لو تحمـــيه وتعـــيده إلى أحـــشائها وفتحت الباب وخرجت تبتلعها عتمة الـــشفق، ولسعتها ريح كانون القاسية وجعلت دموعها تنسكب وأخذ الصغير يبكي وهي تشده وتضمه أكثر إلى صدرها وتقول: لا عليك يا روحـــي، مضطرة يا حبيبـــي وسارت بخطا سريعة تعاند الريح القوية ووصلت إلى رأس الشارع بعد مسير ربع ساعة.

واحـــتمت بشجرة البلوط الكبيرة وهي تنتظر الباص، نظرت في ساعتها كانت الخامسة والنصف تماماً، وأخذ الفجر يلوح ناعساً أزرق وعتـــبتْ على الطبيعة لقسوتها وخاطبت الريح كي تخفف حدتها لأجل الـــصغير الذي أخذ يسعل منذ أيام، وقال لها طبيب المستوصف: عليه بالـــدفء والـــراحة وأعطـــه هذا الدواء. وتنهدت من أعمق نقطة في روحهـــا آهاً عميقة تحولت إلى بخار ينطلق من فمها متكاثفاً من البرد وسمعت هدير الباص العتيق ورائحة المازوت تعلن عن قدومه وصعدت إلـــيه آملـــة بقلـــيل من الدفء، لكن نوافذه المكسرة والمخلعة ولدت عاصفة تضاهي العاصفة في الخارج وتأملت وجه الرضيع الصغير الذي

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

تـــوقظه كـــل يوم في الخامسة وتأخذه معها إلى المستشفى، وهناك في حـــضانة المستـــشفى ترضعه على عجل وتسلمه للموظفة وتسارع إلى وظيفتها ممرضة في قسم الإسعاف، عليها أن تخفف آلام الناس وما من أحد يخفف آلامها، وزوجها المظلوم المسكين مرمي في السجن، لا تملك أن تـــوكل محامـــياً قديراً يدافع عنه ويثبت أنه ضحية مؤامرة من رفاق السوء، وكيف يكون مهرباً ولا يدخل شيئاً إلى بيته؟ أيعقل هذا؟!

وتذكـــرت ما قالته للمحقق منذ سنة، والله نحن بالكاد نأكل... وكيف أكد لها بضحكته أنه لا يصدق حرفاً مما تقول.

تنـــبهت لقـــرقعة وتوقف الباص ونـــزل السائق وسمعته يقول: نـــــزل الدولاب وأكدت لنفسها أن حدسها كان في مكانه وأن شيئاً ســـيئاً سيحدث لا محالة، ونظرت في ساعتها وقالت بذعر: يا إلهي إنها السادسة تماماً وعليها أن تكون في المستشفى في الساعة السادسة والربع أو السادسة والنصف كحد أقصى، وعليها أن تسارع إلى مكتب رئيسة التمريض لتوقع على دفتر الدوام، أهم شيء التوقيع صباحاً وظهراً، بل لا شـــيء يعادل التوقيع أهمية، وفيما هي تنتظر قلقة إصلاح الدولاب هاجمـــتها صـــور كثيفة مكركبة مضحكة، فما أن ينتهي التوقيع حتى تـــصعد الممرضـــات إلى الأقـــسام، بعضهن يدخلن غرفاً غير مشغولة بالمرضـــى ويغططـــن في الـــنوم وبعضهن يحضرن الشاي أو القهوة أو الحلـــيب وبعـــضهن يقمن بإعطاء الدواء للمرضى، فيما المستخدمون يوزعون الإفطار عليهم وبعضهن يخرجن خفية شغل الصوف أو التطريز ويشتغلن لساعة أو أكثر حتى يحين موعد قدوم الأطباء ولكن ويل لهن إذا أحـــست رئيسة التمريض، وتذكرت يوم غافلتهن رئيسة التمريض وصـــديقتها مـــنهمكة في شغل كنـــزة لابنتها والكنـــزة على وشك الانتهاء ودون أي كلمة أخذت رئيسة التمريض الشغل و لم تعده إليها

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

رغـــم التوسلات والاعتذارات الشديدة، ووعدها وهي تحلف بأولادها أن هـــذا الفصل لن يتكرر ورفضت الرئيسة وعادت الممرضة مكسورة الخاطر، والجملة الوحيدة التي قالتها: والله لست مقهورة على الصوف إنما على تعبـــي والكنـــزة قد انتهت.

وردت زميلة لها ضاحكة: يبدو أنها أخذتها لابنتها.

نظـــرت من النافذة، آه يبدو أن إصلاح الدولاب سيطول، وأخذ قلـــبها يطـــرق خوفاً من التأخير في التوقيع وبدا لها دفتر التوقيع مارداً يختفي في كتاب ضخم، وأخذ الصغير يبكي، لابد أنه جائع وتقوقعت مـــسدلة شال رأسها الكبير على صدرها وأخذت ترضعه وهي تحدثه بأرق الكلمات الصامتة وضحكت رغماً عنها وهي تحس بعمق كيف أنها مصدر الحياة لهذا الصغير الذي تعجب كم تحبه وأسعدها أن شهيته جـــيدة وشـــكرت ربها أن حليبها كاف ومغذ وإلا اضطرت للحليب المجفف الغالي.

تململـــل الـــناس إلى جوارها، ونـــزل أغلبهم من الباص وأخذوا يتحدثون أحاديث غير مترابطة وصلت إلى سمعها كطنين النحل.

انـــتهت مـــن إرضاع الصغير وقلبته على بطنه وأخذت تربت بحنان على ظهره حتى تجشأ، وعادت تدثره بالأغطية السميكة ورأته يغـــط في النوم مجدداً، وبين وقت وآخر كان وجهه الطفولي يتشنج متألماً وتساءلت بألم: أتراه يتألم من رائحة المازوت أو من الضجيج أو مـــن الـــبرد، أم لأني أوقظـــه كل يوم في الخامسة وأسلمه ثماني ســـاعات لمربية في الحضانة يمكنها أن ترعاه، لكنها لن تقدر أبداً أن تحبه. آه!.. بالحب ينمو الطفل، تفتقت هذه الجملة في ذهنها بعفوية، لكـــنها اســـتعادتها معجبة بمعناها وعمقها كأن أحداً لم يفطن لهذه الحقيقة قبلها.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

أخـــيراً تم إصلاح الدولاب، كانت الساعة السادسة والربع وسار الـــباص المهلـــهل أخيراً، لكن محطاته في الطريق كثيرة وكل ركابه من العمال والموظفين وحين وصل إلى المدينة كانت أول من نـــزلت تحمل بـــين يديها المسكين الصغير، وأخذت تركض بسرعة لا مبالية بنظرات الدهشة والاستغراب لتستطيع أن تلحق السيرفيس الذي سيوصلها حتى باب المستشفى، ركضت وهي تصرخ سيرفيس، سيرفيس وأخذ الصغير يبكـــي مرتعباً وهو يهتز بقوة بين ذراعيها وهي تركض بأقصى طاقتها وســـاقاها تـــسابقان الريح، ولم تنتبه أن الصغير تقيأ كمية كبيرة من حليـــبها الذي رضعه منذ دقائق ولحقت بالسيرفيس أخيراً وهي تلهث لهاثاً يهز جسدها كله، كان على وشك الانطلاق لكنها زأرت بصوت رهيب: سيرفيس انتظر، فتوقف السائق وصعدت وقلبها يخفق كمضخة وأخـــذت حبات عرق تتكون في جبينها وحاجبيها رغم برد كانون، كان الصغير لا يزال يبكي مرتعباً وأخذت تهدهده وتمسح دموعه، لكنه ازداد توتراً وعلا بكاؤه، وسألها السائق: ما به، أهو مريض؟

نظر إليه وتابع: مساكين هؤلاء الصغار.

قال جملته بطريقة أجبرت الدموع في عينيها أن تتشكل وتنـــزلق بـــصمت علـــى وجنتـــيها، ومدت يدها تمسحها بحذر كي لا يلحظ الركاب أنها تبكي.

وصلت المستشفى أخيراً، كان الآذن يهم بإغلاق باب الحديد.

لكنها صاحت: أرجوك انتظر.

ومـــرت مـــسرعة ودخلت غرفة رئيسة التمريض، كانت دفاتر التوقـــيع مغلقة، وقفت منكسرة أمام رئيسة التمريض التي كانت تحدق بهـــا بنظـــرات محققـــة، نظرات ثابتة يستحيل أن تلين، همت بالكلام فسمعت صوتها ضعيفاً مُشبعاً بالذل: أرجوك...

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

وجاءهـــا الصوت الحازم القاطع كحد السكين: كم ساعتك الآن؟

نظرت في ساعتها، كانت السابعة إلا ثلثاً.

لم تجب، لكن المحققة أصرت على سماع صوتها.

قالت بانكسار: السابعة إلا ثلث.

قالـــت رئيسة التمريض: تعرفين جيداً أن الدوام يبدأ في السادسة وأنـــا أتساهل معكن نصف ساعة، أكثر من ذلك بدقيقة لا أتساهل، أظنك تعرفين هذا جيداً.

ردت بحرارة: صدقيني لقد تعطل الدولاب.

وبحـــركة مـــن كـــف المحققة سكتت. قالت لها محتدة: لا يهمني الأســـباب، والله عال كل يوم أسمع حججاً جديدة... أنا لا علاقة لي بحججكن...

- لكن، صدقيني وحياة ابني الوحيد... لا ذنب لي.

- أرجوك لا تكملي، تفضلي قدمي اليوم إجازة.

- ولكن...

كانـــت تريد أن تحكي، أن تبكي وتلعن وتولول وتنوح. كانت تـــريد أن تغني السكابا والميجنا لتفرغ أشجانها المحبوسة، لكنها سكتت وهـــي تـــرى رئيسة التمريض تبسط على الطاولة أمامها ورقة بيضاء وقلماً...

وانحـــنت وهي تحمل الرضيع على ذراع واحدة، فأمسكت القلم بيدها الأخرى وفيما هي مطرقة تكتب، رفعت رأسها وقالت:

- هل أقدر أن أقدم إجازة خمسة أيام....

نظرت إليها باستغراب: لماذا؟

- الصغير.. مريض.

- حسناً سأوافق على إجازتك، لكنها ستكون بلا راتب، لأنك استنفذت إجازاتك القانونية.

- وردت بسخرية مرة: أعرف.

مـــدت لهـــا الورقة فوقعتها، قالت لها المحققة: حسناً سلميها الآن لموظف الديوان.

أخـــذت الورقة وسلمتها للموظف، كان باب الحديد قد أقفل. بحثت عن البواب ليفتحه لها. خرجت والصغير بين ذراعيها، تضمه إلى صـــدرها بقوة تداريه من قسوة الريح والزمن وتعده أنها ستهديه خمسة أيـــام مـــن الرفاهية عساه ينسى وهو الرضيع الصغير صوت المنبه ولو لخمسة أيام فقط.

عذاب

حين قررَّ الطبيبان نقل أمينة من غرفة المخاض إلى غرفة العمليات، أحستْ أن الفزع يبتلعها تماماً. ليس لأنها سمعت حوار الطبيبين المقيمين المرتبكين بحالتها المعقّدة بل لأن إحساساً طاغياً أشبه باليقين هيمن على روحها، يؤكد لها أن كارثة ستصيبها ولا يمكنها ردها

استعاد ذهنها المُنهك حوار الطبيبين المقيمين:

الأول: من الأفضل أن نستدعي الطبيب الاختصاصي.

الثاني: لا، لن نستدعيه، كيف سنتعلم إن لم نجرب بأنفسنا؟

الأول: لكن هناك علامات صريحة لتألم الجنين.

الثاني: هذه فرصتنا لنجرب كل الحالات الصعبة، ثم لا ننسى أن الأخصائي يغطينا قانونياً.

أصدر الطبيبان أوامرهما بنقل أمينة إلى غرفة العمليات، كان المخاض اللامجدي قد أنهكها، وتركها كخرقة مبللة ملتصقة بسرير المخاض الضيق البارد، كانت تئن وقد جفَّ حلقها والتصق لسانها بسقف حلقها، ولاتنفك تردد بيأس: أرجوك، أرجوك، أرجوك.. في الواقع كانت ترجو الله أن يسهل ولادتها وينقذ وليدها، لكن الطبيب اعتقدَ أنها تعنيه بكلامها، فقال لها بنفاذ صبر: كفى يا أختي ثرثرة، تحمّلي قليلاً، اصبري.

www.ibtesama.com

تنسيق:علامة تعجب

قالـــت وهي تستسلم للأيدي التي توسدها على النقالة المهترئة: ساعات وأنا أتحمل يا دكتور، أتوسل إليك استدعِ الأخصائي.

زجـــرها الطبـــيب قائلاً: اسكتي، والله عال، أتشورين علي ماذا سأفعل؟.

عبرتْ الرواق البارد الطويل إلى غرفة العمليات، برفقتها شابة في السابعة عشرة لها وجه طفلة تمسك يدها بحنان، سألتها أمينة عن اسمها وهـــي تحـــس بتدفق الحنان في جسدها عبر راحة الصبية الحلوة، قالت بصوت يفيض عذوبة: اسمي عذاب. استغربت أمينة، بل استنكرت أن يكون لتلك البنية ذات الوجه الملائكي اسم عذاب. قالت لها: من سماكِ عذاب يا بنيتي؟!. رفعت عذاب عينين حزينتين إلى السقف كأنها تناجي روحـــاً تـــشتاقها ولا تعرفها وقالت: توفيت أمي وهي تلدني، فسماني والدي عذاب.

تعانـــق الحزن في عيني البنية مع حزن المرأة التي هدّها المخاض، أطبق بينهما صمتٌ مشحون بالترقب، كانت عذاب تمسك يد أمينة حـــين صـــرخ بها الطبيب بجفاء: أنتِ، ما بكِ واقفة كالصنم، ألا تريدين أن تتعلمي؟ في أية سنة قبالة حضرتكِ؟ ردت عذاب بصوت مرتجف: في السنة الأولى. قال الطبيب بنـــزق: والله لا أعرف لماذا أنـــا مـــنحوس هكذا؟ كل مرة يرسلون لي تلميذات قبالة في السنة الأولى.

طلـــب موظـــف التخدير من أمينة أن تتنشق المخدر من كمّامة ســـوداء قـــرّبها من أنفها ودّت لو ترفض فقلبها يحدثها أن شيئاً خطيراً ســـيحدث، إنهـــا لا تخشى على نفسها بل على المسكين الذي يتألم في أحشائها، قلب الأم لا يخطئ أبداً، أحست أن قلب الأم موصول بقلب الكون، وتخيّلت أن للكون قلباً كبيراً نابضاً، أمكنها أن تتخيل حدوده

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

كنقاط لمّاعة تربط الأجرام السماوية بعضها ببعض، هذا ما كانت تفكر به حين أخذت تتثاءب بعمق وتدخل في الغياب.

أفلتت عذاب يدها ووقفت إلى جانب الطبيبين المتوترين، أخذ الأول يشتم النساء وتعسرات ولادتهن، تمكنا أخيراً من استخراج الجنين، ووضعاه على طاولة جانبية، نظرت إليه عذاب بعينين تفيضان دهشة، لم يصدر عنه أي صوت، اقتربت منه وتأملته بحب كبير، حدثت نفسها: ما أجمله!.. كان ورديا بأطراف صغيرة طرية، وبطن طري مكور يعلو وينخفض ببطء مع تنفسه. اقترب منه موظف التخدير وهمّ بإنعاشه، أمسكه من قدميه وترك جسده الصغير يتدلى إلى أسفل، كانت عذاب تفكر أن الصغير يشعر بالبرد بالتأكيد، فهي تلبس كنزة صوفية وتشعر بالبرد في تلك الغرفة الخالية من التدفئة، تساءلت: لماذا تظل التدفئة المركزية معطلّة؟ مسحت الغرفة بعينيها كانت حديثة العهد بالقبالة. تقصفت فرائصها رعباً وهي ترى مساعد المخدر يهوي بضربات قاسية على أسفل قدمي الوليد، فيما جسده المتدلي يرتج من شدة الضربات كنّواس، انفلتت من فمها لا... جريحة ونازفة ومتوسلة في آن، لم ينتبه لها أحد! استمر مساعد المخدر يضرب قدمي الوليد بقسوة اقتربت من الوحشية، لم يبدِ الصغير أية استجابة، سوى أن جسده كان ينوس بفعل الضربات، وضعه المساعد على الطاولة، وأخذ يقرصه من أذنيه وثدييه بقوة، حتى انطبعت الأصابع على الجلد الطري للوليد، نظرت عذاب إلى أمينة الغارقة في الغيبوبة، وهي تحس بشلل، نقلوا الطفل خارج الغرفة ووضعوه على سرير بارد في الرواق المعتم.

حاول الطبيب مص المفرزات من جوف فمه بكرة مطاطية تنتهي بمص بلاستيكي، صمم الصغير ألا يفتح عينيه على قسوة الدنيا، لكن

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

بطنه ظل يعلو ويهبط بإيقاع ذابل. انقضَّ صوت امرأة بدينة كهلة على عذاب وهي تسأل الطبيب: هل ألبسه ثيابه؟

كانـــت المرأة تفرد صرة أنيقة وتخرج منها ثياب الوليد الناصعة، وأقمطـــته البيضاء والتي طرزت أطرافها بخيط أزرق، قدرت عذاب أن أمينة قضت أياماً تحبك ثياب طفلها.

تـــآزر معاون طبيب التخدير وطبيبا التوليد على الوليد، يحاولون عـــنوة جعله يصرخ أو يبكي لكن الأخير ظل مستسلماً لخدر أحلامه المُبهمة، أمسكوا الصغير مجدداً من كاحليه، وضربوه بقسوة على أسفل قدمـــيه، أخذ يرتّج بقوة وعذاب تصرخ: كفى، كفى، لماذا لا تطلبون طبيب أطفال؟؟..

لم يبال بصراخها أحد، الأغلب أنهم لم يسمعوها، وضعوا الصغير علـــى ســـرير الفحص، قربوا منه وجوههم الحجرية، ضغطوا صدره براحاتهم الفظة، تبادلوا النظرات التي لا يمكن لعذاب أن تفهمها لأنها لم تتورط بالعذاب الفعلي بعد، بل لا تزال أسيرة اسم، مجرد اسم.

انقـــض عليها صوت المرأة التي أحست عذاب أن عمرها مئة عـــام وقالـــت بـــبرود: لقد مات.. صرخت عذاب: مات، مات، يستحيل....

قالـــت المـــرأة: مسكين، حظه سيئ، وكأنها استدركت، بل إنه محظوظ، لقد ارتاح من عذاب الدنيا.

كانـــت عـــذاب تنتفض كأنها أسيرة حمى مفاجئة، استندت إلى الـــسرير، وعيناها معلقتان بالصغير الذي أحست أنها تحبه كما لم تحب إنـــساناً في هـــذه الدنيا، كانت ابنة السبعة عشر عاماً تكتشف زخم الأمومة في روحها، راقبت المرأة كيف تكفن الصغير بالقماش النظيف المعطـــر والمكـــوي الـــذي حضرته أمينة بفرح للذي يسكن روحها

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

وأحـــشاءها. غاص قلبها وهي تتخيل أمينة تصحو من التخدير وتسأل عن وليدها.

سالت دموع عذاب سخية على خديها، لمحتها المرأة الآلية عَرَضاً، ضـــحكت كاشفة عن لثة تكاد تخلو من الأسنان وهي تقول: لا تزالين طفلة، بعد تسعة أشهر ستنجب أمه غيره، النساء في بلادنا كالقطط.

قالـــت عـــذاب بـــصوت مخنوق: لكن، لكن... اختنق صوتها، وبصعوبة أكملت: كيف مات؟

هزت المرأة كتفيها بلا مبالاة وقالت: لا حظ له، هذا قدره.

– لكن، أما كان يمكن أن يعيش؟ لماذا لم يدفئوه، لماذا لم يستدعوا طبـــيب أطفال؟؟.. لماذا؟؟؟.... قاطعتها المرأة ضاحكة: سوف تتعذبين بحساسيتك هذه.

ســـألت عذاب باستنكار: حساسية!... بدت هذه الكلمة غريبة بالنـــسبة لعذاب، وغير مفهومة، هل تقصد تلك المرأة أن تأثرها بوفاة الصغير يعتبر حساسية زائدة؟!!...

همت أن تسألها: ألا تشعرين بشيء؟ كل ما مرَّ أمامك، ألم يحرك فيك أي شعور؟؟! ما معنى إنسان إذاً؟؟...

لكنها لم تستطع أن تشكل كلمة واحدة، بل ظلت تراقب بعيون خرســـاء المـــرأة الـــتي كفنت الصغير وحولته لما يشبه الوسادة البيضاء الـــصغيرة، وحـــين همّت بتغطية وجهه، صرخت عذاب مختنقة: مهلاً. انحـــنت فوق الصغير، رفعت ملاءة الشاش عن وجهه، لامست وجنته الطـــرية الـــوردية بيد مرتعشة، تدفقت دموعها كطوفان وهي تهمس: ياه..! ما أطرى وجنتيه!! مسحت مرات عديدة على خديه، ثم انحنت وأخذت تقبله بكيانها كله من جبينه وعينيه ووجنتيه، كانت مستعدة أن تقـــسم بـــرحمة أمها أنه استحاب لقبلاتها. تركتها المرأة المنخورة من

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

الـــداخل والخارج تفعل، قالت لها: كفى يا صغيرتي، لن تعيده قبلاتك إلى الحياة.

في نـــبرة صـــوتها سخرية لم تخفَ على عذاب، التي كانت تبكي بعيون أمينة أيضاً.

قالـــت لها وهي تلحم صوتها المتشقق: أعرف، لكن، على الأقل ليقـــبله أحد بحنان قبل أن يغادر الدنيا. ألا يجب أن يعرف القبلة على الأقل!..

كانت عذاب تفكر وهي تبتعد في الرواق المعتم البارد بأمينة التي لم تـــصحُ بعـــد على فجيعتها، وبالوليد الذي لم يرَ نور الحياة، ورغم اصـــطخاب مشاعرها الذي يهدّ جسدها الضئيل، فإنها أحست بشيء مـــن الرضـــى كونه عرف قبلة حنان على الأقل، قبل أن تؤثر روحه العودة من حيث أتت.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

فريد

لم يتـــردد فريد في الصعود إلى الباص رغم تحذير السائق ومعاونه للركاب بأن ثمة خطورة في السَفَر، لأن الثلج الذي تساقط طوال الليل في حمـــص وجوارها قد قطع الطريق، وبأنهم ينتظرون جواباً قاطعاً من الأرصـــاد الجوية. قدّم فريد بطاقة السفر وهويته للموظف الذي رمقه بنظرة تعجب قائلاً: يبدو ان سَفرك ضرورياً جداً يا عم!

ابتسم فريد وهو يهز رأسه موافقاً، ومشى بخطواته البطيئة إلى مقعده، فكّر ماذا لو يعرف هذا الشاب أنني أسافر لسبب وحيد هو الـــبحث عن دفء إنساني، وبأنه ليس لديه أي سبب للسفر سوى أملـــه ان يلتقـــي صديقاً او انساناً مثله يبحث عن علاج لسرطان الوحدة.

جـــاء جـــواب الأرصاد الجوية، بأن الطريق سالك بصعوبة، وثمة خطورة في الرحلة، لكن الباص سينطلق في كل الأحوال... تأمل فريد الوجـــوه القلقة للمسافرين وتراجع معظمهم عن السفر، استعادوا ثمن بطاقـــاتهم، معهم حق، السفر في هذا الطقس مغامرة خطيرة، لكنه لن يتراجع، يستحيل ان يعود الى البيت، حيث يذكره كل ركنٍ فيه كم هـــو مخذول ووحيد... شعر فريد بفرحٍ عظيم حين انطلق الباص، ياه ســـيتمكن من الهروب من وحدته لساعاتٍ طويلة باحثاً عن صديق قد يلتقيه في الرحلة.

تقاعد فريد منذ خمس سنوات، ورغم تصوره المسبق لتلك المرحلة، ومعاينته لحياة المتقاعدين، إلا انه لم يتوقع ان مرحلة التقاعد مبطنة بآلام نفسية لا تحتمل حتى انه سماها بسره مرحلة الذل.

ساعدته حركة الباص البطيئة على الاسترخاء، أغمض عينيه، مستمتعاً بصوت كاظم الساهر يغني أشعار نزار قباني، حرك فيه الصوت اشجاناً، وانفلتت صوراً من حياته في ذاكرته. منذ تقاعده، لا يمر يوم إلا وانتقادات زوجته تنهال عليه كيف تدخل المطبخ، ألا ترى الأرض مبتلة، فقد مسحتُ البلاط للتو، وتتأفف مرددة العبارة نفسها، بأن جلوس الرجل في البيت ثقيل ومزعج.

حتى ابنه الوحيد خذله، يعجز فريد عن الربط بين الطفل المرح المبتسم والمولع بوالده، وبين الشاب الذي صاره، شاب غاضب على حدود الانفجار، ناقم، وحاقد على الظروف وعلى الدنيا كلها، وعلى والديه اللذين أنجباه الى دنيا الشقاء.

مسكين ابنه، مساكين كل هؤلاء الشباب المحبطين، لم يكن فريد يعاتب ابنه ابداً على جفائه وقسوة ألفاظه حين يتحدث إلى والده... كان يتألم لظروفه حقاً، فقد تخرّج من الأكاديمية البحرية بعد دراسة لخمس سنوات كلّفت فريد الكثير من المال، بل لقد دفع كل مدخراته من اجل دراسة ابنه، لكن الشاب فوجيء ان الشهادة غير معترف بها، فأخذت تنتابه نوباً من جنون الغضب، ويتفوه بأبشع الشتائم غير مبال بوجود أب مذعور يحدق بابنه بألم غير مصدق ما يسمع.

حاول فريد ان يبث شيئاً من الأمل في نفس الشاب، لكنه كان يخرج مجروحاً وخائباً في كل مرة يتحدث إليه، خاصة حين يُختم الحوار صراخ الشاب المحدق بقسوة بوالده: لماذا أنجبت اولاداً في بلد يتلذذ

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

بـــتدمير أولاده، أي ذل هـــذا أحصل على شهادة تكلف الكثير، ثم يقولون انه غير معترف بها.

هجّ ابنه من البلد بعد معاناة شرسة مع ذل البطالة، ألقى نفسه في المجهول تاركاً اباً مشلولاً بالألم، عاجزاً عن فعل شيء، بل صارت كل عـــبارة يـــتفوه بها فريد تثير السخرية والسخط عند ابنه. حتى زوجته خذلـــته حين قررت بعد سفر ابنها ان تنتقل للعيش مع ابنتها في دبـــي لتساعدها في تربية الأولاد.

اعـــتنِ بنفـــسك! صار اهتمامهم به يقتصر على اتصالات تزداد تباعداً يوصونه فيها أن يعتنِ بنفسه.

متـــربعاً كملـــك علـــى عرش وحدته، مجروحاً في عمق كيانه، مكابـــراً، صـــابراً وصامتاً، صار فريد يجرجر أيامه، مذهولاً من قسوة البـــشر، وعاجـــزاً عن الاعتراض والشكوى، لمن يعترض؟ و لم يشكو! فأكثر الطعنات ألماً تأتينا من الأحباء.

يـــوماً بعد يوم يشعر فريد كيف تحوّل عيشه إلى إحساس دائم بالمرارة، وكيف صار كل صباح يحاذر ان ينظر إلى وجهه في المرآة، لأن مقـــدار الأسى والمرارة المرتشحين في ملامحه يفوق قدرته على الاحتمال.

لم يكـــن يملـــك سوى أسئلة تزيد من ألمه: ترى ألا يشعر هؤلاء الـــذين يدّعـــون حـــبه كم يجرحونه... ألا يدركون بأن الطريقة التي يعاملـــونه بهـــا تشعره كما لو ان حياته قد أنجزت، كما ينجز رساماً لوحته!

لمـــاذا يتأففون من تصرفاته، وكلماته، ويشعرونه انه عبء ثقيل، وإذا فقـــد قدرته على تحمل فظاظتهم وغضبهم، وسمح لنفسه بتأنيبهم، يشعرونه بالعار، إذ كيف لا يزال رجل يقترب من عقده السابع يغضب

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

ويشتم هكذا! ينظرون إليه بعتبٍ وبرود نظرة تعني: يجب ان تختبىء في رصانة سنواتك.

مـــع الـــوقت، وجَدَ فريد نفسه متمادٍ في وحدته، كما لو ان وحدتـــه غـــازاً يتمدد في داخله أكثر فأكثر، حتى زملائه في العمل الذين كانوا يرحبون به حين يزورهم صاروا يتهربون منه، ويدّعون انشغالاتهم الكثيرة، وحده يعرف ان لا عمل لهم سوى الثرثرة، تخلوا عن المظهر الوحيد الذي يشعره بدفء العِشرة والزمالة تقديم فنجان قهوة.

كـــفّ عـــن زيارة زملائه في العمل، وحاول ان يُقحم نفسه في عـــادات الـــتقاعد، لم يطق الجلوس في المقاهي لأنه لم يتحمل سحب دخان الأركيلة، وجعير المذياع وعرف بحدسٍ مؤكد انه لن يتمكن من اقتناص صديق من هذه المقاهي المسعورة - كما سماها -

متعته الوحيدة المتبقية، هي المشي، يمشي كل يوم لساعة أو أكثر مـــستعيداً علـــى مهل مراحل من حياته، منتهياً كل مرة بما آلت إليه حـــياته، يستعيد أصوات زوجته وابنه شاعراً ان أصواتهم متسلطة عليه، ليس فيها دفء ولا رحمة ولا مودة.

كلماتهم أشبه بالسياط تنهال عليه، يقاوم دموعه، وخيالاته تسرح في زمن بعيد حين كان الكلام أشبه بزهر الياسمين، لم يفهم لماذا يحلو له تشبيه الكلام العذب الدافىء بزهر الياسمين.

لم يقرر ابداً انه سينجر إلى عادة السفر من محافظة إلى محافظة ومن مدينة إلى مدينة بحثاً عن صديق يحتمل ان يلقاه في الباص او في استراحة المسافرين.

صدفة وجد نفسه ذات صباح - وأثناء إحدى رحلات تسكعه - يقـــف وراء طابور من المسافرين إلى دمشق، اشترى بطاقة، وصعد إلى

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

الـــباص، جلس وسط خمسة وأربعين راكباً شاعراً بمتعة لا توصف بأنه محـــاط بهـــذا الـــدفء البشري، أخذ يتأمل الوجوه خلسةً ، يبتسم لها ويتمتع بتنوع تعابيرها. وفي استراحة المسافرين تبادل أحاديث عابرة مع رفاقـــه في السفر، ثم وصل دمشق، تسكع لساعة في شوارعها اشترى أشـــياء لا تلـــزمه، ثم عاد إلى اللاذقية ممتناً لذلك الإلهام الذي قاده إلى السفر.

كـــان يـــشعر كيف يمنحه دفء الحديث اماناً وقوة، متنبهاً ان الغـــرباء يبوحون لبعضهم بالأسرار بثقة، ربما لتأكدهم انهم لن يلتقون مرة ثانية.

تحـــوّل السفر إلى عادة عند فريد، يسافر مرة في الاسبوع الى دمـــشق او حمص ويعود متعباً الى بيته لكن سعيداً، أنه تحايل على وحدتـــه، وأدخـــل شيء من الدفء الى روحه المتيبسة من غياب الحب.

كـــم تأمل العلاقات بين البشر، كيف تتصلب القلوب وتتحجر، يحـــس بالخـــزي والألم كيف ضمرت مشاعر ابنه تجاهه، تمر أشهر ولا يتـــصل بـــه، وحين يتصل يسأله ببرود كيف صحتك، إياك أن تنسى تناول دواء الضغط.

ذات يـــوم صـــرخ والدموع تنهمر في عينيه منحدرة في تجاعيد الخيبات: انا روح، انا روح، ولست مجرد جسد.

ضـــحك ابنه وقال: بابا، ما الذي جرى لك، أخشى انك صرت رومانسياً.

يـــتجول فـــريد في منـــزله، الذي كان ذات يوم عامراً بالحب والـــدفء، تـــركوا لـــه أغراضهم التي لا يريدونها، كم تستثير تلك الأغراض بكائه، يشعر انه احد هذه الأغراض.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

فكر فريد كم كان يحب الليل، يجد في هدوئه سحراً، وفي عتمته دفئاً، لكنه صار يخشاه بعد تقاعده، فيشعر انه يقبر المساءات، وان كل ليل يمضي يسحب معه شيئاً من ضياء روحه.

وصل الباص الى استراحة المسافرين في حمص، الثلج يغطي الطريق والجـــرّافة تعمل بلا كلل، أحس بالبرد يخترق عظامه. ياه أي جنون ان يسافر في هذا الطقس باحثاً عن صديق، متسولاً دفئاً بشرياً صار عملة نـــادرة في هـــذا الـــزمن فكّر ان صقيع العلاقات البشرية يفوق صقيع كانون.

رشـــف الـــشاي، محاولاً تدفئة جسده، غمرته شفقة عارمة على نفـــسه، كان صوت الريح في الخارج يضخم إحساسه بالأسى والمرارة المعششان في روحه، أي ذل ان يضطر كهل وحيد ان يسافر في طقس ثلجي وفي رحلة محفوفة بالمخاطر ليتسوّل عاطفة!

قـــرّر ألا يكمل سفره الى دمشق، لأن آلام مفاصله اشتدت عليه بـــسبب عضات البرد، سيعود أدراجه الى اللاذقية، تخيل كيف سيدخل بيـــته المـــوحش المعـــتم، وكيف سيتناول عشاءه البارد وهو واقف في المطـــبخ، ثم ســـيندس في فراشه باحثاً عن وضعية او طريقة لتهدئة ألم الوحدة الذي لا يعادله ألم على الإطلاق.

مـــسح بظاهـــر يده دموعه التي انسكبت من عينيه، تنهّد وفمه يرتعش مؤذناً ببكاء... أية مرارة ألا يتمكن ان يتحدث مع احد حديث روح لروح وقلب لقلب... عدة مليارات من البشر ولا صديق!

وفـــيما هـــو يـــتقدم الى شباك التذاكر، ليشتري بطاقة العودة، منخمـــصاً داخـــل معطفه انتبه لرجل يماثله في العمر ويبتسم له، بادره الرجل بالتحية: حضرتك مسافر الى اللاذقية.

رد فريد: نعم.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

– أتمانع ان اجلس بجوارك، نؤنس بعضنا في الطريق.

تراقص قلب فريد فرحاً ورد بحماسة: على الإطلاق.

شـــعت ابتسامة الغريب في روح فريد، كشعاع شمسٍ واهٍ يشق غيوم الكآبة الرمادية.

وكـــضربة ســـحر تفجّـــر حديث مفعم بالدفء والعذوبة بين الكهلين. حديث لذيذ حيوي فوق التصور.

ضحك الغريب وقرب فمه من أذن فريد، وقال له: سأعترف لك بسر. يااللحرية التي يعطينا إياها الغرباء.

التمعت عينا فريد بالاهتمام والتشوق لمعرفة السر

قال الرجل: أتعرف، أنا اسلي نفسي بالسفر من مدينة الى مدينة، كي اقتل الوقت وأتحايل على الوحدة قبل ان يقتلاني، أولادي بعيدون، حاولت لسنوات ان اقنع نفسي ان مشاغلهم تمنعهم من الاهتمام بـــي ولقائي، لكني استسلمت اخيراً، وكما ترى اهتديت لهذه الطريقة...

انفجـــر فـــريد بالضحك، فيما دموع التأثر والعرفان تنهمر من عينيه، وبصعوبة تمكن من صياغة عبارته: وأنا مثلك يا أخي، انا مثلك تماماً، أسافر بحثاً عن صديق...

دعاه فريد إلى بيته، لم يتردد الرجل في قبول الدعوة، أشعل فريد الـــنار في الموقد واتصل بمطعم قريب ليرسل له عشاء فاخراً... ثم أحس بلهفة غير عادية ليرى وجهه في المرآة.

يـــا للدهشة، حدّق فريد بصورة الرجل المرتسمة في المرآة، وجه يشف عن ابتسامة غريبة، فائقة العذوبة، ابتسامة روح أضناها الحرمان، وعثرت على الكنـــز المفقود اخيراً، دفء بشري.

صندوق الضمير الأزرق

كانـــت تعـــرف أن نتائج الفحوصات الطبية ستكون سلبية، و لم يـــستطع أي من الأطباء الذين استشارتهم تحديد سبب صداعها، أحد الأطـــباء حـــاول الربط بين نوب صداعها العنيف وسن اليأس، لكنها كانـــت تعرف أن لاعلاقة بين الاثنين، فهذا الصداع ما هو إلا صوت الضمير المقموع منذ سنوات.

كانـــت محط حسد وإعجاب من حولها، لأنها زوجة تاجر معروف بنـــزاهته وثرائه وأم لثلاثة شبان متفوقين في دراستهم، عدا عن نجاحها في إدارة حـــضانة للأطفال. والأهم من كل ذلك، الحب العميق الذي يربط أفراد أسرتها ببعضهم. ماذا تنتظر أكثر من ذلك؟ فما الذي ينغصّها ويجعل رأسها يكاد ينفجر من الصداع الذي يتركها أحياناً طريحة الفراش لأيام!

بـــدأت نـــوب صداعها خفيفة بعد ثلاث سنوات من زواجها، وكانـــت تعالجها بالمسكنات ثم صارت تلك النوب تشتد، حتى صار ألمها غير محتملاً ولا يهدأ على أقوى المُسكنات.

وســـط عذابها الذي لا شكل له، ما كانت تعرف تحديد أزمتها وكيفية علاجها، فوحدها تعرف أن سبب صداعها نفسي، لكنها تقف مـــشلولة، عاجـــزة عن التصرف، إلى أن قرأت ذات يوم تلك العبارة، فتبلـــبل كيانها كله: "إن الحجر الذي رماه البناؤون ورفضوه قد أصبح حجر الزاوية في البناء".

لمـــاذا زلزلتها تلك الجملة واعتبرتها بداية الرغبة بالتطهّر من آثام الماضـــي، أجل فتلك الذكريات التي حاولت إهمالها، معتقدة أن الزمن كافـــياً لمحوها، بل اعتقدت أن الزواج سيطردها، تلك الذكريات الآثمة هي حجر الزاوية في حياتها، وهي التي يتمحور حولها كيانها كله.

أكّـــد لهـــا الـــزمن أن الكذب لا يؤدي إلا إلى التعاسة والدمار النفسي، إنها تدرك أن أساس أمنها الأسري وسعادتها، الكذب، والغش. لقد خدعت زوجها بطهارتها الزائفة وبالتالي خدعت أولادها، ماذا لو عـــرفوها على حقيقتها؟ ولماذا تنتابها تلك الرغبة العنيفة بالبوح بالحقيقة بعـــد تلـــك السنوات الطويلة من الأمن الأسري، حتى لو كان الثمن تعاسة كل أحبائها.

تلاحقهـــا سنوات الإثم، وتقلق سلام روحها، وكلما ألحّت على نفـــسها في طرد تلك الذكريات، تكثّفت في ذهنها أكثر فأكثر. ذلك الزمن البعيد الذي يبدو لها كنفقٍ مظلم لا نهاية له، يومها كانت تغلي بالأحقاد على الرجال، الذي اختصرتهم بشخص والدها، والدها البخيل الـــذي طلّق أمها بعد عشرين سنة ورماها رمية الكلاب، وتزوج من (عاهـــرته) كما كانت تسمي تلك الشابة اللعوب، التي عرفت وحدها كيف تجعل رجلاً مشهوراً ببخله أن يغدق عليها المال بلا حساب.

لم تكـــن وقـــتها قـــد أكملت العشرين، مختنقة بالقهر الروحي والمـــادي، تعـــيش في مديـــنة غـــربية لتتابع دراستها الجامعية في اللغة الإنكليزية، شجعها حقدها على والدها، والغربة، وشفقتها على أمها، خاصـــة وهـــي تعيش في عاصمة مزدحمة بالغرباء، كل تلك الأسباب شـــجعتها علـــى رسم خط حياتها مستندة على ركيزتين، الحقد على الأب - الـــرجل - والحب الكبير والشفقة على الأم - المرأة - وبين هـــذين القطبين كفرت بالحب والإخلاص، وآمنت أنه من الجنون أن

تخلـــص امرأة لرجل. استغلت شبابها وفتنتها، وعاشرت رجالاً كهولاً أثرياء، أغدقوا عليها الهدايا الثمينة، وإذا قصّر أحدهم في تلبية رغباتها، اســـتمتعت بإذلاله، وقطعت علاقتها به، إلا إذا استرضاها بالكثير من الهدايا الثمينة.

لم تقـــدّر وقتها الآثار النفسية الكارثية لسنوات الإثم في الجامعة، وكانـــت رغـــم انحـــلال سلوكها متفوقة في دراستها، وخلال ثلاث ســـنوات امتلأ صندوقها الفارغ بالذهب وسال المال بين يديها، لكن كـــل تلك الأمجاد المالية، لم تشعرها بالسعادة. ظلت تحس بطعم مرارة حـــارق، وكانـــت نوب مفاجئة من احتقار الذات تنتابها فتوقظها من نومها وتجعلها تصرخ صراخاً هستيرياً: أنا قحبة، أنا قحبة.

لم تكن تزور بلدتها إلا في الصيف، فتغدق المال على أمها مدعيةً أنها تعمل إضافة للدراسة، وقد انقطع والدها عن إرسال المبلغ الزهيد لها حـــين علم أنها تعمل. وحين أنهت دراستها الجامعية وعادت إلى وطنها لتتـــسلم وظـــيفة حُسدت عليها في أشهر مصرف في المدينة، تقمصت بـــنجاح الشخـــصية التي أرادت أن تكونها، نفذّت خطتها بإحكام، وبالغت في الاحتشام وتمثيل العفة والتزمت، وتمكنت خلال فترة وجيزة مـــن إيقاع شاب ثري - كان يملك حساباً مصرفياً كبيراً في المصرف الـــذي تعمـــل به - في غرامها، وكان الشاب ابن عائلة ثرية معروفة بنـــشاطها في تجـــارة البناء. وحين تقدم لخطبتها، طلبت مهلة للتفكير، وطوال أشهر الخطبة منعته من تقبيلها تاركة إياه في حالة لهاث مستمر للحـــصول علـــيها، مما دفعه للإسراع في الزواج. وقبل حفل الزفاف بـــيومين، رتقـــت بكارتهـــا، وحين نـــزفت شرفها الكاذب في مخدع الـــزوجية، أســـرعت إلى الحمام لتتفرج في المرآة على تعبير الشماتة في وجههـــا، أحـــست وهي تسبر عمق نظرتها المتهللة بالنصر، أنها تنتقم

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

لأمهـــا - وللنساء - من والدها - والرجال - ضحكت وهي تحدث نفسها بأن كلمة المخدع الزوجي مشتقة من الخداع.

لم تفكّـــر في البداية أنها بنت حياتها على الكذب، بل كانت تبرر ســـلوكها تماماً، بأنه تحصيل حاصل لعقلية الرجل المتخلفة. لكنها وبعد أن صارت أماً تحديداً، أحست بولادة مشاعر جديدة في نفسها، شاعرة أنهـــا تـــتعمّد بالنقاء والطهر، ثم أنها أحبت زوجها لأنه لطيف وكريم وصادق. وحين رُزقت بابنها الثالث الذي كان مريضاً في قلبه وأجري لـــه جراحة وهو لم يكمل الشهرين من عمره، آمنت أن مرض صغيرها هو عقاب إلهي لها على سنوات الإثم.

ثم بـــدأت نوب صداعها تشتد، اعتقد زوجها أن سبب صداعها الإرهـــاق، فهـــي ترفض أن تساعدها امرأة في عمل المنـــزل، إذ أنها بنفـــسها تخـــدم زوجها وأولادها غير مبالية بتعبها الجسدي، بل على العكس تحاول عن طريقه تسكين ضميرها، ثم بدأ وجهها يتغير تدريجياً ففقد تعبير الراحة، وأخذ يظلم. وقد جمّد القلق ملامحها، وبدأ إحساس جديـــد أشـــبه بالنَمَل ينتشر في أطرافها ثم يغزو جسدها. إنها مدنسّة، ودنس الروح صعب لا يمكن معالجته كدنس الجسد. ثم بدأت تشعر أن حزناً جليلاً يهبط على كيانها، حزن عميق كضباب كثيف يعزلها عمّا حـــولها، وصـــارت ذكـــريات سنوات الإثم تلاحقها بطريقة لا مجال للهروب منها، بل إنها صارت تستثير تلك الذكريات عامدة كي تعاقب نفسها.

ومع الأيام، وحيدة مع عذابات الماضي، ما عادت قادرة أن تحدّق طـــويلاً في عـــيون أولادها وزوجها، فكانت تشيح نظرها عنهم وهي تحس بضيق وحرج، مكتوية بحقيقتها الآثمة، بل إنها صارت تشعر أنها لا تستحق محبتهم، ولا تجرؤ أن تحبهم وروحها مدنسة.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

كانت كآبتها تزداد كلما ازداد تقدير زوجها وأولادها لها، وكلما عبّر لها الناس عن عمق احترامهم لها وإعجابهم بها. وحين فاجأها موظفوا حضانة الأطفال التي تديرها بحفل لتكريمها كسيدة فاضلة مثالية.

أصابتها نوبة من الرجفان والضحك العصبي، واضطرت للانسحاب من الحفل متعللة بوعكة معدية. وفي منزلها تقيأت والصداع يفجّر رأسها، شاعرة أنها تتقيأ آثام الماضي. تنبهت لحقيقة أدهشتها أنها صارت تضحك كثيراً مداراة توترها، لكن ضحكها ما عاد يعبّر عن أي فرح فهي تحس أنها محطمة داخلياً، ولم تعد قادرة على إكمال قراءة مقال, فذهنها مضطرب دوماً، وأفكارها تتلاحق بفوضى ثم تسقط متعثرة بسبب بليلة غامضة تملأ كيانها.

بل إن ثوب رجفان صارت تنتابها حين تنظر في عيني زوجها وعيون أولادها، فتحس نظراتهم تخترقها اختراقاً. أما محنتها الحقيقية فتبدأ في الليل حين يزداد استعار ندمها ورغبتها بالبوح بالحقيقة. إنها تشعر بحاجة محمومة لعدالة عليا، تتوق للعدل كما لو أنه أقوى غريزة في الوجود لدرجة أنها سألت كل من حولها إن كان هناك توق غريزي عند الإنسان للعدالة. إنها أسيرة شعور طاغ لا تستطيع مقاومته - أشبه بنداء علوي - يجبرها على الاعتراف. أجل لن تتطهّر نفسها إلا بالاعتراف الصادق، فهي بحاجة لإعادة بناء كرامتها على أساس الصدق، فما نفع حياة قائمة على الكذب.

عند الفجر تقوم مُنهكة من انفعالاتها المستعرة طوال الليل، تتأمل هيئتها في المرآة، فتحس بإنهاكها. صار منظرها كمنظر إنسان يحتاج أن يسترد قواه.

ألحّت عليها الرغبة بالاعتراف لدرجة شعرت أنها تعيش حالة مستمرة من نفاذ الصبر، وأحياناً من الوَجد، فهي تتوق للخلاص الذي

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

لن يتحقق إلا بالاعتراف. تحدث نفسها: أحبائي يجب أن يعرفوني على حقيقتي، زوجي الطبيب المخلص المخدوع يجب أن يعرف أني ضاجعت رجالاً كثيرين وحصلتُ على المال.

كانت تطيل النظر إلى زوجها وهو نائم أو وهو يتفرج على التلفاز، فـــلا تعرف من يستحق الشفقة أكثر، هي أم هو؟ بدت حياتها مستحيلة لأنها غير قادرة بعد على تحمّل سرّ قلبها، قررت أن تقول الحقيقة، وبدت مـــستعدة لتقـــبل كل النتائج المأساوية الناتجة عن ذلك. لجأت لمصارحة أختها بما تنويه كخطوة أولى في طريق التطهّر، حكت لها ماضيها وعذابها بسبب سنوات الإثم وقرارها بأن تعترف لزوجها وأولادها بسنوات الإثم.

لم تـــصدّق أختها في البداية، اعتبرت ما سمعته هذياناً، بل اعتبرته بداية مرض نفسي وحاولت إقناعها بأن الماضي مات وبأنها في الحقيقة امـــرأة ممـــتازة وزوجة مخلصة وأم متفانية. لكنها لم تقنع إطلاقاً بمنطق أخـــتها - بـــل ازدادت تشبثاً برغبتها في الاعتراف لأسرتها بماضيها. فهددتها أختها أنها ستقول للجميع بأنها جنّت، وأن كل كلامها هذياناً.

لكن المرأة المكتوية بالندم ضحكت ساخرة من أختها وقالت لها: لكني أملك أدّلة.

بحلقـــت بها أختها كأنها تتعرف إلى وجهها لأول مرة: أدّلة؟ ما هذه الأدّلة؟

أجابـــت بصوت هامس: أخبيء صوري مع عشاقي في صندوق صغير، صوري الآثمة وأنا عارية في أحضانهم فوق فراش العهر.

- وكيف تحتفظين بهذه الصور، هل أنت مجنونة؟!

- هنا يكمن السر، أتعرفين، مراراً قررت حرق الصور وتمزيقها، لكـــني كـــنت أعجـــز، إرادة غامضة كانت تمنعني من إتلاف صوت الضمير، فما هذه الصور إلا صوت الضمير الذي ظل غافياً لسنوات.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

- أنت مجنونة حقاً، خسارة لقد فقدت عقلك.

لم تستطع الأخت أن تفهم أبداً ماذا يعتمل في نفس أختها المعذبة بآثام الماضي، و لم تفهم كيف تستطيع إنسانة بكامل قواها العقلية أن تطوح بسعادة وشرف أسرتها، وتجني الدمار النفسي لأحبائها والفضيحة.

حاولت استدراجها في الكلام لتعرف أين تخبيء صندوق الصور، لكن المرأة المشتة بالعذاب رفضت أن تبوح بسرها: لن أقول لكِ أين الصندوق، وتمتليء عيناها بالدموع ثم تقول أريد أن أبرأ، إن كل حياتي قائمة على الكذب.

- لكنك تغيّرتِ.

- لا يهم، ما عدتُ قادرة أن أتحمّل عذاب الكذب، كياني يتوق للحقيقة.

- فكري كم ستسببين الألم لأولادك وزوجك، فكري بالفضيحة.

في تلك الليلة شعرت أنها تتوهج كجمرة، أخرجت صندوق الضمير من مخبئه، دخلت غرفة أولادها حافية محاذرة أن تصدر أي صوت، تأملتهم بنهم وشوق عظيمين مستعينة بنور قمر شاحب ووحيد مثلها، تمنت لو تقبلهم لكنها كانت تعرف أنها ستوقظهم، ركعت على الأرض، وقبلت أحذيتهم كاتمة صوت نشيجها.

ثم خرجت من دنياهم كشبح، ووضعت صندوق ضميرها قرب سرير زوجها ورغم الظلام حولها فإنها أحست أن إحساساتها الغامضة المُبهمة قد توضحت وأن نوراً مبهراً يخرج من نفسها، أحست بظمأ حار إلى التطهر. ومن دون أن تنظر إلى نفسها في المرآة، رأت ضياء وجهها وابتسمت ابتسامة عميقة. لبست ثيابها، وحملت حذائها بيديها، و لم تلبسه إلا بعد أن خرجت من البيت، نظرت في ساعتها أدهشها أن الصبح طلع مبكراً، تهللت نفسها فرحاً، الصبح طلع لأجلي، بل نور الصبح طلع من روحي المتعمدة بالشفاء.

www.ibtesama.com تنسيق:علامة تعجب

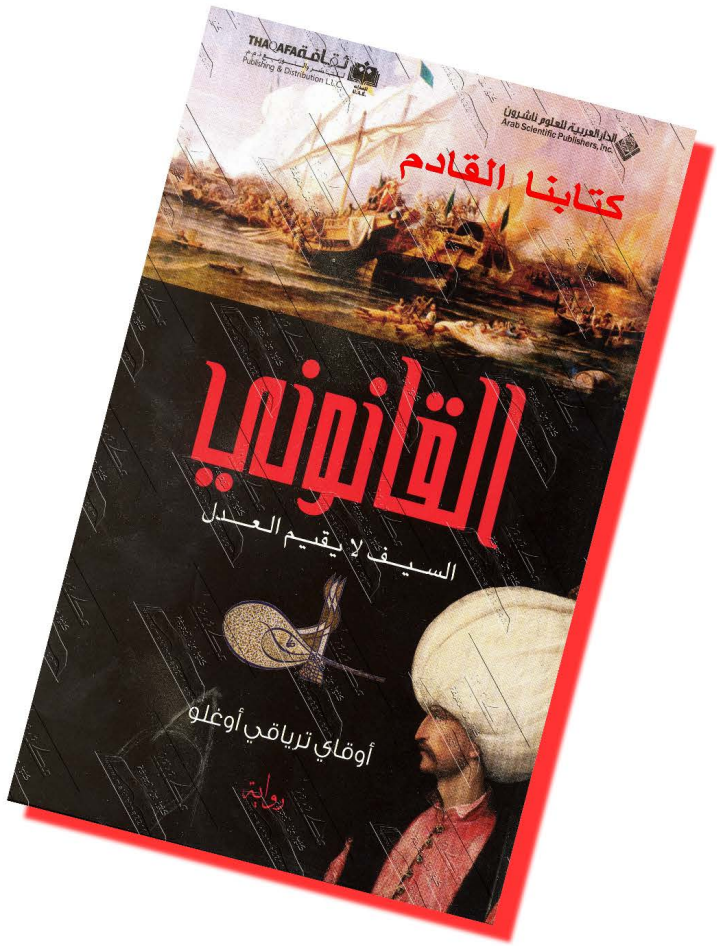

www.ibtesama.com
تنسيق:علامة تعجب

www.ibtesama.com

Thurs.
11/7/2013

غروب وكتابة

قصص قصيرة

هيفاء بيطار

• روائية من سورية

بدت مبهورة بالعناق الحار، والجسد الجميل الملتصق بها، شعرت أنها تقف على حافة جرف عميق عميق لا قرار له، وبدت لها سنوات عمرها الطويلة التي لم يكن في قلبها رجل مرعبة حقاً... ثمة رعب فظيع يتفجر من سنوات عمرها...

لم تتوقع أن جسدها المتخشب من الحرمان، وغريزتها المودعة في ثلاجة سيولد منهما كل تلك الحيوية، أدهشتها تلك المرأة المعطاءة المتفجرة بالأنوثة والرغبة...

لوحة الغلاف: Amedeo Modigliani «Jeanne Hebuterne in red shawl»
تصميم الغلاف: سامح خلف

• صدر للمؤلفة أيضاً:

ISBN 978-9953-87-916-1

9 789953 879161

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
هاتف: 1676179 2 (213+)
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة – الجزائر
editions.elikhtilef@gmail.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

جميع كتبنا متوفرة في موقع نيل و فرات .كوم www.neelwafurat.com - www.nwf.com